



في الوقت الضائع (٢)

توفيق الحكيم



8



Bibliotheca Alexandrina



0107147

توفيق الحكيم

في الوقت الضائع

(٢)

الناشر
مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقي - النجيلة

دار مصر للطباعة
سعيد جودة السحار وشركاه

كتب للمؤلف نشرت باللغة العربية

- ١ — محمد عليه السلام (سيرة حوارية) ١٩٣٦
- ٢ — عودة الروح (رواية) ١٩٣٣
- ٣ — أهل الكهف (مسرحة) ١٩٣٣
- ٤ — شهر زاد (مسرحة) ١٩٣٤
- ٥ — يوميات نائب في الأرياف (رواية) ١٩٣٧
- ٦ — عصفور من الشرق (رواية) ١٩٣٨
- ٧ — تحت شمس الفكر (مقالات) ١٩٣٨
- ٨ — أشعب (رواية) ١٩٣٨
- ٩ — عهد الشيطان (قصص فلسفية) ١٩٣٨
- ١٠ — حمارى قال لى (مقالات) ١٩٣٨
- ١١ — براكسا أو مشكلة الحكم (مسرحة) ١٩٣٩
- ١٢ — راقصة المعبد (روايات قصيرة) ١٩٣٩
- ١٣ — نشيد الأنشاد (كافي التوراة) ١٩٤٠
- ١٤ — حمار الحكيم (رواية) ١٩٤٠
- ١٥ — سلطان الظلام (قصص سياسية) ١٩٤١
- ١٦ — من البرج العاجى (مقالات قصيرة) ١٩٤١
- ١٧ — تحت المصباح الأخضر (مقالات) ١٩٤٢
- ١٨ — بجماليون (مسرحة) ١٩٤٢
- ١٩ — سليمان الحكيم (مسرحة) ١٩٤٣
- ٢٠ — زهرة العمر (سيرة ذاتية — رسائل) ١٩٤٣
- ٢١ — الرباط المقدس (رواية) ١٩٤٤

— ٤ —

١٩٤٥		٢٢ — شجرة الحكم (صور سياسية)
١٩٤٩		٢٣ — الملك أوديب (مسرحية)
١٩٥٠		٢٤ — مسرح المجتمع (٢١ مسرحية)
١٩٥٢		٢٥ — فن الأدب (مقالات)
١٩٥٣		٢٦ — عدالة وفن (قصص)
١٩٥٣		٢٧ — أرني الله (قصص فلسفية)
١٩٥٤		٢٨ — عصا الحكيم (خطرات حوارية)
١٩٥٤		٢٩ — تأملات في السياسة (فكر)
١٩٥٩		٣٠ — الأيدي الناعمة (مسرحية)
١٩٥٥		٣١ — التعادلية (فكر)
١٩٥٥		٣٢ — إيزيس (مسرحية)
١٩٥٦		٣٣ — الصفقة (مسرحية)
١٩٥٦		٣٤ — المسرح المتنوع (٢١ مسرحية)
١٩٥٧		٣٥ — لعبة الموت (مسرحية)
١٩٥٧		٣٦ — أشواك السلام (مسرحية)
١٩٥٧		٣٧ — رحلة إلى الغد (مسرحية تنبؤية)
١٩٦٠		٣٨ — السلطان الحائر (مسرحية)
١٩٦٢		٣٩ — ياطالع الشجرة (مسرحية)
١٩٦٣		٤٠ — الطعام لكل فم (مسرحية)
١٩٦٤		٤١ — رحلة الربيع والخريف (شعر)
١٩٦٤		٤٢ — سجن العمر (سيرة ذاتية)
١٩٦٥		٤٣ — شمس النهار (مسرحية)

- ٤٤ — مصير صرصار (مسرحية) ١٩٦٦
- ٤٥ — الورطة (مسرحية) ١٩٦٦
- ٤٦ — ليلة الزفاف (قصص قصيرة) ١٩٦٦
- ٤٧ — قالبنا المسرحي (دراسة) ١٩٦٧
- ٤٨ — بنك القلق (رواية مسرحية) ١٩٦٧
- ٤٩ — مجلس العدل (مسرحيات قصيرة) ١٩٧٢
- ٥٠ — رحلة بين عصرين (ذكريات) ١٩٧٢
- ٥١ — حديث مع الكوكب (حوار فلسفي) ١٩٧٤
- ٥٢ — الدنيا رواية هزلية (مسرحية) ١٩٧٤
- ٥٣ — عودة الوعي (ذكريات سياسية) ١٩٧٤
- ٥٤ — في طريق عودة الوعي (ذكريات سياسية) ١٩٧٥
- ٥٥ — الحمير (مسرحية) ١٩٧٥
- ٥٦ — ثورة الشباب (مقالات) ١٩٧٥
- ٥٧ — بين الفكر والفن (مقالات) ١٩٧٦
- ٥٨ — أدب الحياة (مقالات) ١٩٧٦
- ٥٩ — مختار تفسير القرطبي (مختار التفسير) ١٩٧٧
- ٦٠ — تحديات سنة ٢٠٠٠ (مقالات) ١٩٨٠
- ٦١ — ملامح داخلية (حوار مع المؤلف) ١٩٨٢
- ٦٢ — التعاادلة مع الإسلام والتعادلية (فكر فلسفي) ١٩٨٣
- ٦٣ — الأحاديث الأربعة (فكر ديني) ١٩٨٣
- ٦٤ — مصر بين عهدين (ذكريات) ١٩٨٣
- ٦٥ — شجرة الحكم السياسي (١٩١٩ — ١٩٧٩) ١٩٨٥

كتب للمؤلف نشرت في لغة أجنبية

شهر زاد : ترجم ونشر في باريس عام ١٩٣٦ بمقدمة لجورج لكونت
عضو الأكاديمية الفرنسية في دار نشر (نوفيل أديسيون لاتين) وترجم إلى
الإنجليزية في دار النشر (ييلوت) بلندن ثم في دار النشر (كروان)
بنيويورك في عام ١٩٤٥ . وبأمريكا دار نشر (ثري كنتنترا بريس)
واشنطن ١٩٨١ .

عودة الروح : ترجم ونشر بالروسية في ليننجراد عام ١٩٢٥
وبالفرنسية في باريس عام ١٩٣٧ في دار (فاسكيل) للنشر وبالإنجليزية
في واشنطن ١٩٨٤ .

يوميات نائب في الأرياف : ترجم ونشر بالفرنسية عام ١٩٣٩
(طبعة أولى) وفي عام ١٩٤٢ (طبعة ثانية) وفي عام ١٩٧٤ و ١٩٧٨
(طبعة ثالثة ورابعة وخامسة بدار بلون بباريس) وترجم ونشر بالعبرية
عام ١٩٤٥ وترجم ونشر باللغة الإنجليزية في دار (هارفيل) للنشر بلندن
عام ١٩٤٧ — ترجمة أبا إيمان — ترجم إلى الأسبانية في مدريد عام ١٩٤٨
وترجم ونشر في السويد عام ١٩٥٥ ، وترجم ونشر بالألمانية عام ١٩٦١
وبالرومانية عام ١٩٦٢ وبالروسية عام ١٩٦١ .

أهل الكهف : ترجم ونشر بالفرنسية عام ١٩٤٠ بتمهيد تاريخي
لجاستون فييت الأستاذ بالكوليج دي فرانس ثم ترجم إلى الإيطالية بروما
عام ١٩٤٥ وبميلانو عام ١٩٦٢ وبالأسبانية في مدريد عام ١٩٤٦ .
عصفور من الشرق : ترجم ونشر بالفرنسية عام ١٩٤٦ طبعة أولى ،

- ونشر طبعة ثانية في باريس عام ١٩٦٠ .
- عدالة وفن : ترجم ونشر بالفرنسية في باريس بعنوان (مذكرات قضائي شاعر) عام ١٩٦١ .
- بجماليون : ترجم ونشر بالفرنسية في باريس عام ١٩٥٠ .
- الملك أوديب : ترجم ونشر بالفرنسية في باريس عام ١٩٥٠ ، وبالإنجليزية في أمريكا بدار نشر (ثري كنتنتز بريس) بواشنطن ١٩٨١ .
- سليمان الحكيم : ترجم ونشر بالفرنسية في باريس عام ١٩٥٠ وبالإنجليزية في أمريكا بدار نشر (كنتنتز بريس) بواشنطن ١٩٨١ .
- نهر الجنون : ترجم ونشر بالفرنسية في باريس عام ١٩٥٠ .
- عرف كيف يموت : ترجم ونشر بالفرنسية في باريس عام ١٩٥٠ .
- المخرج : ترجم ونشر بالفرنسية في باريس عام ١٩٥٠ .
- بيت التمل : ترجم ونشر بالفرنسية في باريس عام ١٩٥٠ .
- وبالإيطالية في روما عام ١٩٦٢ .
- الزمار : ترجم ونشر بالفرنسية في باريس عام ١٩٥٠ .
- براكسا أو مشكلة الحكم : ترجم ونشر بالفرنسية في باريس عام ١٩٥٠ .
- السياسة والسلام : ترجم ونشر بالفرنسية في باريس عام ١٩٥٠ .
- وبالإنجليزية في أمريكا بدار نشر (ثري كنتنتز بريس) بواشنطن ١٩٨١ .
- شمس النهار : ترجم ونشر بالإنجليزية في أمريكا (ثري كنتنتز) واشنطن عام ١٩٨١ .
- صلاة الملائكة : ترجم ونشر بالإنجليزية في أمريكا (ثري كنتنتز) واشنطن عام ١٩٨١ .

- الطعام لكل فم : ترجم ونشر بالإنجليزية في أمريكا (ثرى كنتنتز)
واشنطن عام ١٩٨١ .
- الأيدي الناعمة : ترجم ونشر بالإنجليزية في أمريكا (ثرى كنتنتز)
واشنطن عام ١٩٨١ .
- شاعر على القمر : ترجم ونشر بالإنجليزية في أمريكا (ثرى كنتنتز)
واشنطن عام ١٩٨١ .
- الورطة : ترجم ونشر بالإنجليزية في أمريكا (ثرى كنتنتز) واشنطن
عام ١٩٨١ .
- الشیطان فى خطر : ترجم بالفرنسية فى باريس عام ١٩٥٠ .
- بين يوم وليلة : ترجم ونشر بالفرنسية فى باريس عام ١٩٥٠
وبالأسبانية فى مدريد عام ١٩٦٣ .
- العش الهادئ : ترجم بالفرنسية فى باريس عام ١٩٥٤ .
- أريد أن أقتل : ترجم ونشر بالفرنسية فى باريس عام ١٩٥٤ .
- الساحرة : ترجم ونشر بالفرنسية فى باريس عام ١٩٥٣ .
- دقت الساعة : ترجم ونشر بالفرنسية فى باريس عام ١٩٥٤ .
- أنشودة الموت : ترجم ونشر بالإنجليزية فى لندن هاينان عام ١٩٧٣
وبالأسبانية فى مدريد عام ١٩٥٣ .
- لو عرف الشباب : ترجم ونشر بالفرنسية فى باريس عام ١٩٥٤ .
- الكنز : ترجم ونشر بالفرنسية فى باريس عام ١٩٥٤ .
- رحلة إلى الغد : ترجم ونشر بالفرنسية فى باريس عام ١٩٦٠ .
- وبالإنجليزية فى أمريكا بدار نشر (ثرى كنتنتز بريس) بواشنطن عام
١٩٨١ .
- الموت والحب : ترجم ونشر بالفرنسية فى باريس عام ١٩٦٠ .
- السلطان الحائر : ترجم ونشر بالإنجليزية فى لندن هاينان عام ١٩٧٣ .

- وبالإيطالية في روما عام ١٩٦٤ .
- يا طالع الشجرة : ترجمة دنيس جونسون دافيز ونشر بالإنجليزية في لندن عام ١٩٦٦ في دار نشر أكسفورد يونيفرستى بريس (الترجمات الفرنسية عن دار نشر « نوفيل إيديسيون لاتين » بباريس) .
- مصير صرصار : ترجمة دنيس جونسون دافيز عام ١٩٧٣ .
- مع : كل شيء في مكانه .
- السلطان الحائر .
- نشيد الموت .
- لنفس المترجم عن دار نشر هاينمان — لندن .
- الشهيد : ترجمة داود بشاي (بالإنجليزية) جمع محمود المنزلاوى تحت عنوان « أدبنا اليوم » مطبوعات الجامعة الأمريكية بالقاهرة — ١٩٦٨ .
- محمد ﷺ ترجمة د . إبراهيم الموجي ١٩٦٤ (بالإنجليزية) نشر المجلس الأعلى للشئون الإسلامية . طبعة ثانية مكتبة الآداب ١٩٨٣ .
- المرأة التي غلبت الشيطان : ترجمة تويليت إلى الألمانية عام ١٩٧٦ ونشر روتن ولوننج بيرلين .
- عودة الوعي : ترجمة إنجليزية عام ١٩٧٩ لبيلي وندر ونشر دار ماكملان — لندن .

صفحة	
١٥	★ حديث إلى قرأى
١٦	من حصاد العمر
٢٥	في الدين
٣٦	في تطبيق الشريعة
٥٥	صبرا سأصمت
٦٧	حديث الإفك
٧٩	الزوجة المثلى
٩٣	خطرات في الدين
١٠٥	★ أوراق ضائعة
١٠٦	في السد العالي : إني حى
١١٥	★ أنا والأهرام
١٢٢	عودة الشباب
١٣٢	الحضارة والحوار
١٤٠	الملوك والرؤساء في دولة الشعر
١٤٧	هل بلادنا مثقفة ؟
١٤٩	هل انتهى عصر الفلسفة
١٥١	ما هو الفكر ؟
١٥٣	الرحمة
١٥٨	طعام الوجدان
١٦٠	ذكريات
١٦٣	على شط النيل
١٦٦	الفنان والجمهور
١٦٨	تاكسى !
١٧٢	الحب في جهنم

الآن وقد شاءت رحمة الله أن أصبح
في مرحلة الوقت الإضافي ، لا أجد ما
أقدمه لكل من أحاطوني باهتمامهم
« مناصرين ومعارضين » خصوصا في
فترة مرضى التي طالت كثيرا ، خيرا من
أفكارى وخواطرى التي كتبتها في
الوقت الضائع ، عليهم يجدون في كتاباتى
الأخيرة فائدة ونفعا .

سعيد الكلبى

حديث إلى قرائي

● في سلسلة أحاديثي التي كنت قد بدأتها بالمناجاة في صورة « حديث مع وإلى الله » ثم « حديث معي نفسي » .. أو اصل فيما يلي أفكارى وخواطرى تحت عنوان : « حديث إلى قرائي » .

أعرض عليهم فيه ما كنا نفكر فيه ونكتب منذ نصف قرن من الموضوعات المختلفة التي تشغل مجتمعا ولم تزل تشغله مثل الدين والعلم والأدب والفن والمرأة والحكم ونحو ذلك .. مما يتكون منه هيكل الثقافة العربية بلغتها وتراثها .. بما يمكن أن يطلع القارئ على صورة خاطفة لتفكيرنا منذ عصر التنوير ، وهل تقدم أو تأخر ؟ أو ليث واقفا في مكانه منذ نصف القرن ، وظل مجتمعا كما كان ، بمشكلاته وأفكاره .. وأظن من واجبي في هذه المرحلة الأخيرة من حياتي أن أنظر إلى هذه السنوات الخمسين من وجودنا وأصبح قارئ معي في هذه النظرة .. وليس عندي من وسيلة إلى ذلك سوى عرض نماذج تجسد هذا التفكير في هذه الموضوعات المختلفة . وأسأل الله التوفيق .. ●

من حصاد العمر

عام ١٩٣٣ « من رسائل متبادلة مع طه حسين »

« ... نحن متفقان ، ولا خلاف بيننا في الغاية . وهذا هو مطلبنا .. هناك تفاصيل أفرق فيها عنك . ولن أعود إليها . فأنا أفرع من النظر إلى الوراء : حشية أن أتحول إلى تمثال من الملح .. أو حتى إلى تمثال من الذهب .. نفسى تصدف أحيانا عن الفكرة الجامدة مهما تكن قيمتها ، ويحلولى أحيانا أن أثير الأفكار من نافذة قطار .. إن رسائلنا في حقيقتها لا تعنى أكثر من إثارة الغبار في أرض نائمة مفروشة بالحصى .. لسنا نصدر أحكاما بهذه الكتب السريعة .. وإنما نحن نطرح مسائل ونلقى بفروض ، سوف يلتقطها ويجمعها الباحثون المنقطعون يوم تستيقظ الأجيال .. اتفقنا إذن ، أو ينبغي لنا أن نتفق على أى حال ، حتى ننصرف إلى شيء جديد .. إن البحث عن الجديد هو الخلق عندى بالمجهود .. ولقد فتح لنا اليوم باب الجديد صديقنا « أحمد أمين » .. قال لي ذات مساء إنه يود لو وضع كتابا في أصول النقد .. التقد ؟ لفظرن في أذنى . وذكرت للفور أن رسالتى السابقة إليك كان موضوعها « الخلق » .. وقلت في نفسى : ما يمنع من إتمام الكلام في رسالة ثانية يكون موضوعها « النقد » ؟ وإذا الأمر يتكشف لي عن قضية كبيرة : أنعد النقد كالخلق ، خاضعا لسلطان التيارات الفكرية الثلاثة التى ذكرتها في رسالتك السابقة لي : التيار المصرى القديم والتيار العربى والتيار الأوروبى .. أم بعد النقد كالعلم لا يخضع لمثل هذه المؤثرات ؟ .. أما أنا فلن أجيب من فورى عن هذا السؤال .. فأنا أكتب ولا أدري أين يخطبى القلم .. دعنى أولا أنشئ على هذا النغم بعض « تقاسيم » دون أن أعنى الآن بالغاية .. دع الغاية .. الغاية أحيانا رخيصة بجانب الوسيلة .. على الأقل في نظر الفن .. لأن الغاية في الفن لا تبرز الوسيلة .. الحياة كذلك .. تلك القطعة الفنية التى أبدعها الخالق .. أهى شيء

غير وسيلة متينة التكوين ؟ أها معنى في نظرنا غير ذلك الطريق الذى أوله ضباب
وآخره ضباب ؟ .. خط هندسى رسم على لوح الوجود .. كيف ابتداء ؟ كيف
انتهى ؟ .. لا يعنى ذلك علم الهندسة .. إنه خط بين نقطتين وكفى .. ليس لنا أن
نسأل عن غاية الحياة ، ولا عن غاية الفن ، ولا عن غاية العلم .. إن الغاية لا
تهم .. إنما المعنى كله فى الوسيلة .. الحياة هى الطريق « النهج » والعلم هو
الطريقة « المنهج » والفن هو الأسلوب .. أما الغاية فلا غاية .. « هى المجهول
الذى فى علم الله » .. وهل يرتجى من العلم أو من الفن أو من الحياة غاية مطلقة
يوما من الأيام ؟ .. محال .. ما نحن إلا أسلوب الخالق .. ما الكون إلا أسلوب ..
الأسلوب هو عمل كل خالق ، وفى كل خلق .. إن الخالق الأعظم هو أعظم شأنا
من أن يحبس إرادته الخالدة فى حدود « غاية » لأن اللفظ نفسه « الغاية » يدل على
معنى « النهاية » .. والنهاية والانتهاى الذى تقف عنده الغاية لا يمكن أن يكون من
صفات الله تعالى .. إن كلمة « غاية » من صنع العقل أو الإدراك البشرى
الصغير .. والعقل المحدود يضع كل شئ داخل حدود .. ويأبى إلا أن يكون
لكل شئ أول وآخر « وبداية ونهاية وطريق وغاية » .. إنما الخلود فى
الأسلوب ، لأن الأسلوب ليس له آخر .. إن رجل الفن .. وهو المقلد الصغير
للمبدع الأكبر يدرك أن الفن لا يعيش بالغاية .. لأن الغاية فانية ولها نهاية
كاسمها .. وإنما يعيش الفن بالأسلوب .. لقد انقضت الغاية من تشييد الأهرام ..
دفن الملوك غاية ماتت ، وبقي أسلوب الفن وحده باقيا حتى اليوم والغد فى بناء
الأهرام .. الأسلوب إذن هو عماد الخلق (وإن كانت « الغاية » فى الإصلاح
للنفس والمجتمع مهمة عند الفنان ، لأنه بشر) . كما أن « الغاية » قد توجد ،
وتكون خارجة من الأسلوب نفسه . وهى « غاية » عليا مجردة من كل غرض
سوى معرفة الله فى أسلوب خلقه . وتظهر عند بعض العلماء الذين يكرهون ..
التكنولوجيا .. لأنها متصلة بالغرض النفعي . وربما كان هذا أساس مذهب
« العلم للعلم » و « الفن للفن » بمعنى التجربة لغاية واحدة هى : معرفة الله وحبه
لذاته من أسلوب خلقه . وهذه « الغاية » المتجردة قد تصل إلى « التصوف » ..
(فى الوقت الضائع ج ٢)

وكل هذا .. على الرغم من أن جوهر الخلق أسلوب (... وكلمة الأسلوب رجة عميقة كالبحر ، في جوفها كل كنوز المعرفة التي يصبو إليها البشر .. ولعل كل ما أوتيّه الإنسان ، من سليقة سامية منذ أول الأزمان ، ليس إلا انعكاس أسلوب الخالق الأعظم في نفس الإنسان .. هذا الشعور بالتناسق والتناسب ، هذا الإدراك للصلة التي تربط الشيء بالشيء ، من أين جاءنا هذا نحن البشر ؟ .. أهناك مصدر آخر غير أسلوب الخالق .. فتحت البشرية عينها فألفتها حولها ، فهو موجود قبلها .. وقبل الخليقة ، كما يوجد الرسم والتصميم قبل البناء .. إن أسلوب المبدع الأعظم في صنع الخليقة هو وحده المنبع الأزلى لهذه الصفات كلها .. صفات هي بعينها صفات الأسلوب السليم لكل عمل فني عظيم .. أسلوب الله هو المعلم الأول والأخير .. إن المنطق الذي شيد الأهرام هو صورة للمنطق الذي شيد الكون .. على أن الكون وقد خلقه الله وأوجد في أرضه البشر ، وجعل للبشر طبائع من خير وشر ، ومجتمعات فيها الصالح لهم والضار .. فقد أصبح هذا البشر في حاجة إلى مصابيح هداية تضيء لهم طرق السلامة والتقدم فأرسل إليهم الرسل والأديان ، كما سخر لهم العقول والأقلام ليكون لهم « غاية » بشرية هي منفعة البشر ... إلى جانب الغاية الإلهية وهي معرفة الله وعظمته في أسلوب خلقه .. ولقد جاء في رسالتك لى ذكر للتيار الأوروبي وهو القائم على العلم . ولا بأس به — بل هو واجب محتوم ، على شريطة أن يقرن به ونضيف إليه عناصر جديدة ووسائل أخرى مستخرجة من أرضنا وتراثنا ، ومن ينابيع معتقداتنا وطبيعتنا القائمة على أساس زواج الروح بالمادة : وتلك ينابيع فكر كامل ، مدنية متزنة ..

(مجلة الرسالة ١٩٣٣)

في الوحدة العربية

عام ١٩٣٨

الوحدة العربية في نظري ليست صب العرب في دولة واحدة .. لأن هذا مستحيل . لاختلاف طبيعة الأرض والتاريخ والشخصية لكل بلد عربي .. وكأن كل شقيق له شخصيته المستقلة عن شقيقه في الأسرة الواحدة .. كذلك كل دولة عربية لها وجودها وتاريخ أرضها .. وظروف حياتها مما يجب المحافظة على كيانه . وعلى كل شقيق أن يراعى ذلك ويحرص على عدم المساس بشخصية شقيقه وتشجيعه على التقدم . والتقدم لن يتأتى إلا إذا عطف كل بلد من بلاد الشرق « والعرب » في أول الأمر على ما يملك . ليستخرج من بطن الأرض التي يحيا عليها كل كنوز ماضيها .. حتى إذا اجتمع لدى تلك البلاد « العربية » قدر عظيم من تلك الآليء القديمة مجلوة منزوعا عنها التراب ، صب ذلك الثراء كله في معين واحد مشترك وقدم إلى الإنسانية باسم « الثقافة الشرقية العربية » . فأنا على الرغم من رغبتى في تكوين شخصيات فكرية مختلفة ووحدات سياسية مستقلة لكل أمة من الأمم العربية والشرقية ، فأنى أحب أن نتذكر دائما أننا إزاء الغرب لنا صفة واحدة تجمعنا وينبغى أن نحافظ عليها .. إن طابعنا الفكرى ، وطريقة نظرنا إلى الأشياء ، وتقاليدها وتراثنا وإحساسنا بالجمال الذهني ومشاعرنا نحو مظاهر الطبيعة المختلفة ، وأسلوبنا في التعبير عن حقائق الأشياء .. كل ذلك ينم عن عقلية خاصة ، وعبرية مستقلة لا ينبغى أن تتحلل أو تزول تحت طغيان موجة أقوى .. فإذا نادينا بالوحدة العربية فإما ذلك لندعم كتلة « الروح الشرقى » أمام كتلة « الروح الغربى » ..

(تحت شمس الفكر ١٩٣٨)

الشخصية المصرية

عام ١٩٣٣

لابد لنا أن نعرف من المصرى ؟ .. هذا السؤال ألقىته على نفسى منذ سنوات إذ كنت أطيل النظر فى الفنين المصرى والإغريقى .. وأذكر أنى لخصت الفرق بين العقليتين بمثل واحد فى فن النحت .. قلت سائلا .. ما بال تماثيل الآدميين عند المصريين مستورة الأجساد ، وعند فن الإغريق عارية تماما ؟ .. هذه الملاحظة الصغيرة تطوى تحتها الفرق : كل شئ فى مصر مستتر خفى عند المصريين ، عار جلى عند الإغريق . نعم .. كل شئ فى مصر خفى كالروح ، وعند الإغريق جلى كالنطق ففى مصر الروح والنفس ، وفى اليونان المادة العقل .. نظرة أخرى فى أسلوب النحت تدعّم هذا الكلام : إن المثال المصرى لا يعنيه جمال الجسد ولا جمال الطبيعة من حيث الشكل الظاهر .. إنما تعنيه الفكرة . إنه يستنطق الحجر كلاما وأفكارا وعقائد ... « فهو من حيث تعبيره عن أفكار وعقائد اعتبره من الفن الملتزم » .. لأن الفنان المصرى له بصيرة تنفذ إلى ما وراء الأشكال الظاهرة لتحيط بقوانينها المستترة .. كل شئ فى مصر إلهى .. مصر أمه مستقرة مؤمنة .. والتفكير فيما وراء الحياة ظهر على وجه الفن المصرى .. ولا شئ يدل على عواطف أمة وعلى عقليتها مثل فنّها . ولا أكاد أفتح كتابا فى الفن المصرى حتى أجد كلمة « الصرامة » وفى الفن الإغريقى كلمة « الحياة » . وحظ الإغريق مثل حظ العرب . فالعرب أمة نشأت فى صحراء ققراء ، قليل من الماء يثير الحرب والدماء . أمة لاقت الحرمان . وما عرفت طيب الثمار وجرى الأنهار .. أمة حلمت بلذة الحياة .. تفكير العرب وفن العرب فى لذة الحس والمادة .. فن الزخرف العربى هو فى الحق أجمل وأعجب فن زخرف خلده التاريخ .. والزخرف عند العرب وليد ذلك الحلم باللذة والترّف .. كل شئ عند العرب زخرف .. الأدب من نثر وشعر إنما هو وشى مرصع جميل يلذ الحس .. فسيفساء اللفظ والمعنى . الغناء

العربى إنما هو صوت يحمل بألوان المحسنات لذة للأذن ، كذلك التصوير العربى على جماله ودقته تزيين وزخرف للكتب والمخطوطات .. مقابلة عجيبة : مصر والعرب وجهها الدرهم وعنصر الوجود .. أى أدب عظيم يخرج من هذا التلقيح ! إلى أتمنى للأدب المصرى الحديث هذا المصير : زواج الروح بالمادة والبناء بالزخرف ..
(من رسائل متبادلة مع طه حسين — مجلة الرسالة ١٩٣٣)

فى استقلال التفكير

عام ١٩٤٧

قالت العصا : هل هناك علامة تدلنا على أن شخصا من الأشخاص قد وصل إلى مرحلة الاستقلال فى التفكير ؟ .. قلت : نعم . هناك علامة بسيطة هى أن نرى الشخص يعرف منبع تفكيره ، وأن يعترف بأثر غيره فى هذا التفكير ... هكذا نرى « غاندى » يقر دائما أنه مدين بفلسفته إلى « تولستوى » .. ونرى « محمد عبده » يقول إن أستاذه فى تفكيره هو « جمال الدين الأفغانى » .. وأرسطو يكرر أنه تلميذ أفلاطون حتى رغم ابتكاره هو لمذاهب أخرى .. وجوته يعلن تأثره بتفكير قولتير إلخ .. هذه المعرفة بالمنبع ، وهذا الاعتراف بالتأثر ، هما دليل الشخصية الفكرية أو الفنية التى تشعر أنها استقلت بالفعل ، وأصبحت لها الذاتية الخاصة ، وأنها بلغت فى استقلالها وذاتيتها الحد الذى ترى معه جدورها ، ولا يضيرها أن تذكرها وتنبه بها .. على عكس الشخص المبتدىء أو الشاب فى مطلع تفكيره ، فإنه لا يستطيع أن يرى المنبع . وإذا استطاع فإنه يخفيه فى الحال عن نفسه وعن الآخرين مؤكدا أنه لم يتأثر قط بأحد ولا بشئ .. قالت العصا : حقا إن استقلال التفكير لا يبدأ إلا فى النضج ، فيعرف ويعترف ..

(عصا الحكيم ١٩٤٧)

فتور الحركة الأدبية

عام ١٩٤١

من المسئول عن فتور الحركة الأدبية الملحوظ عندنا ؟.. لا ينبغي أولاً أن نعلل ذلك بالحوادث الدولية .. فإن الفتور كان دائماً موجوداً في جونا الأدبي قبل أن تنشأ هذه الظروف .. ثم إن المشاكل السياسية وتأثيرها في النفوس والشعوب لم تحل في أوروبا دون اهتمام الناس بشئون الفكر وعناية الجمهور بالكتب والأدب . فما زالت الصحف الأدبية تتحدث هناك عن ظهور الكتب الجديدة والأدباء الجدد بعين الحماسة التي تتحدث بها في كل زمان .. وما زالت المسابقات الأدبية ، والجوائز السنوية تهز الناس وتثير نشاط الكتاب كما تفعل في كل حين . فأحداث السياسة مهما يعظم خطرها لا يمكن أن تشل في أى بلد متحضر حركة الفن والفكر .. فالأمة الراقية شأنها شأن الإنسان الحى مهما يعرض له من الحوادث ، فإن رأسه دائماً هو الرأس اليقظ الذى لا ينى عن التفكير .. إذن ما بال هذا الرأس في بلدنا نائماً ؟ وما بال الناس لا يشعرون أن في بلدنا أدبا يتحرك ويتطور وأن فيها أدباء يعملون وينتجون ؟ ما يكاد يمضى شهر حتى تخرج المطابع كتباً في الشعر والنثر .. وما يكاد يوم يولى حتى يجيئنى البريد بكتاب جديد أو بديوان شعر جديد .. كم من الأدباء الجدد والكتاب الناشئين يخرجون عندنا في كل عام أعمالاً جديدة بالكلام .. بل كم من الأدباء الناضجين ينشرون آراء خليقة بالمناقشات .. ولكن كل ذلك يمر في فتور كأنها نسمات في دنيا الأموات !.. ما العلة ؟.. العلة بسيطة : ما من أحد في هذا البلد يبدو عليه التحمس الملتهب لشئون الفكر والأدب .. إن علة الفتور الأدباء أنفسهم .. إنهم في ميدان الأدب أقل نشاطاً منهم في ميدان السياسة مثلاً .. إنهم يكتبون في الأدب !.. إن أقلامهم لا تثير فكراً في جو الأدب وكأنهم ناعسون !.. إن أقلامهم لا تثير في جو الفكر حراكاً .. وهنا الفرق

بين أدبائنا وأدباء أوروبا .. إنهم هناك في يقظة أدبية .. ومن كان في يقظة استطاع أن يوقظ الآخرين ...

(من البرج العاجي ١٩٤١)

دواء الغلاء

عام ١٩٤٧

قالت العصا : لا حديث للناس اليوم إلا عن الغلاء : هذا الداء المستعصى الذى تعبت الرؤوس وكلت الهمم فى البحث عن علاجه . ألا ترى له من دواء ؟ .. فلنبحث أولا عن أصل هذا المرض . بعيدا عن نظريات العلماء والخبراء .. إنه فى حقيقة الأمر لا يختلف كثيرا عن أى مرض من تلك الأمراض التى قيل فيها قديما : « البطنة أصل الداء ، والحمية رأس الدواء » . فمهما يكن من قوة الأسباب الاقتصادية أو غيرها مما يؤثر فى السوق ويرفع الأسعار ، فإن السبب الأكبر هو فى أيدينا نحن ، بل فى بطوننا .. فمواد الطعام من لحم وخبز وأرز وفاكهة لن ينخفض سعرها فى أى يوم مادما نريد أن نضعها على موائدنا كل يوم .. إن شراهة المنتج والبائع إنما تنبع من شراهة المشتري والمستهلك .. وإليك تجربة تثبت ذلك بالدليل : قوموا معشر المستهلكين بحملة واسعة بكافة طرق النشر لتحديد الأصناف وتنظيم ألوان الطعام لكل بيت . محذرين من أكل الفاكهة أكثر من مرتين فى الأسبوع ، واللحم أكثر من ثلاث مرات ، والأرز أكثر من مرتين أو ثلاث .. واحملوا حملة شعواء على الإسراف والتبذير والترف فى المأكل والملبس ، وروجوا للقناعة والبساطة .. ولا أقول للزهد والتقشف كما فعلت إنجلترا منذ عامين ونجحت ، لا فى مقاومة الغلاء فقط ، بل فى القضاء على أزماتها المالية .. افعلوا هنا ذلك وأنتم ترون الكروش قد اختفت ، ونقص الترهل ومرض السكر وضغط الدم ، ونزول الأسعار وتعمير الجيوب وإطعام الفقير والغنى .. قالت

— ٢٤ —

العصا : حقا لا فائدة من علاج الغلاء قبل علاج البطون .. بطوننا وترفنا .. لا شيء يقتل البائع الطامع غير المشتري القانع ..

(عصا الحكيم ١٩٤٧)

في الشعر

إلى الله :

ما قد رأيت فقد ضيعت أيامي	إن كان منزلتي في الحب عندي
واليوم أحسبها أضغاث أحلام	أمنية ظفرت بروحي بها زمننا
إثما فقد كثرت في الحب آثامي	وإن يكن فرط وجدى في محبتكم

(ابن الفارض)

* * *

في الدين

أهناك حد فاصل بين العقيدة والعقل ؟ إذا قلنا مع القائلين إن العقل والقلب والغريزة ملكات ثلاث منفصلة إحداها عن الأخرى فإن هذا القول يؤدي حتما إلى نتائج غريبة .. ولعل أول ما يفهم من هذا الاستقلال بين الملكات تباين ألوان الحقيقة لدى كل منها ، فما يصدق عند العقل قد لا يصدق عند القلب .. يقابل ذلك في المحسوسات تلك الحدود والحواجز بين الحواس — فعالم البصر منفصل عن عالم السمع . والحقيقة البصرية غير الحقيقة السمعية .. فهذا الحجر الساكن حقيقة تراها العين المبصرة ، ولكن الأذن لا تدرك هذه الحقيقة ولا تعرف ما هو الحجر وما شكله ؟ لأن عالمها وهو عالم المرئيات .. والعقل لا يدري إلا ما يلائم وظيفته وما يخضع لمقاييسه . والحقيقة العقلية ليست الحقيقة كلها . ولكنها الحقيقة التي يستطيع العقل أن يراها من زاويته . فإذا كانت العقيدة مرجعها القلب فإن العقل لن يرى منها إلا الشطر الذي يستطيع أن يراه ، ويظل محجوبا عنه الشطر الواقع في دائرة القلب .

أما حقيقة الخالق فأمر بعيد عن مقدرة العقل . وهل يستطيع الجزء أن يرى الكل ؟ هل تستطيع الكبد داخل جسم الإنسان مثلا أن تحيط إدراكا بحقيقة شكل الإنسان الخارجى ؟ .. فالحقيقة العقلية أو العلمية لا يتجاوز علمها الكائنات التي تمر بالحواس .. وإن الحقيقة الدينية بعيدة عن وسائل العلم ودائرة بحثه — فالتوفيق بين العلم والدين من هذه الناحية ضرب من العبث .. على أن اجتهد المجتهدون في هذا السبيل لم يتعد ذلك الجانب من الدين الخاضع بطبيعته لحكم العقل ، وهو الجانب الاجتماعي المبني على الأخلاق .. وهنا يتساءل الناس دائما : ما الدين ؟ أهو شيء مفيد للبشر في حياتهم ومعاشهم ؟ أم هو طريق لحل اللغز الأكبر وسبيل للنفوذ إلى المجهول الأعظم ؟ فالدين باعتباره قانونا اجتماعيا ينظم الغرائز ، ويحفظ التوازن بين الخير والشر ، أمر متعلق بذات الإنسان ، متصل إذن بعقله وعلمه .. إنما قوة الدين وحقيقته

في الإيمان بالذات الأزلية .. هنا لا سبيل إلى الدنو من تلك الذات الإلهية إلا عن طريق يقصر عنه العلم الإنساني ، بل يقصر عنه كل علم . لأن العلم معناه الإحاطة . والذات الأبدية لا يمكن أن يحيط بها محيط ، لأنها غير متناهية الوجود ، فالاتصال بها عن طريق العلم المحدود مستحيل .

هنا يبدو عمل الدين ضرورة للبشر .. وإني ما كتبت هذه الكلمة اليوم إلا لألفت نظر رجال الدين إلى وجوب التسامح والهدوء ، كلما قام باحث يتكلم في الدين عن طريق العقل . فإن الشرق اليوم مقبل على حياة علمية واسعة ، مهادها المعاهد والجامعات ، ولا بد ثناء ملكة العقل من التفكير الحر ، كما أنه لا بد لحياة ملكة القلب من الشعور الحار العميق .. فليترك رجال الدين المفكرين يفكرون كما يشاءون ويثرثرون كما يريدون .. وكل هذا الضجيج لن يصل خبره إلى القلب ، الذي لا يفتر لحظة عن التسبيح ، رغما عنهم ، بالعقيدة التي ركبت عليها حياته النابضة ! . والدين أيضا في جوهره علم وفكر .. « ولا عبادة كتفكر » كما قال الرسول صلوات الله عليه ..

(تحت شمس الفكر ١٩٣٨)

الأزهر والحياة العقلية

عام ١٩٣٩

نشرت بعض الصحف أن وزارة المعارف تلقت من الأزهر كتابا كذبه الأزهر فيما بعد بشأن خطر كتاب « يوميات نائب في الأرياف » بقلم توفيق الحكيم مدير إدارة التحقيقات بالوزارة . وهذا تعرضه لهيئة القضاة الشرعيين . وقد قابل أحد مندوبي الحوادث الأستاذ توفيق الحكيم وسأله في الموضوع فأجاب : « إني بصفتي كاتباً اجتماعياً قد أردت في كتابي إبراز صورة للقضاة الشرعيين إلى جانب الصورة المرسومة فيه للقضاة الأهليين ولرجال النيابة والبوليس وأطباء الصحة والعمد وغيرهم .. ولا

أظن القضاة الشرعيين يتمتعون بقداسة خاصة وحصانة دينية تجعلهم في مكان لا ترتفع إليه يد النقد والإصلاح ... ولا شك عندي أن مستقبل مصر والعرب متوقف على ضمان حرية العقول والأفكار . الحرية الضرورية لكل نهضة حقيقية .. وفي صحف ذلك العهد ما يتعلق بأزمة الحياة الفكرية في مصر .. ولم يكن قد مضى عام على أزمة سياسية تعرضت لها وخصم من مرتبى نصف شهر وكنت مهددا بالفصل : نعم . السياسة والدين : مصدرا قوة .. في إساءة استخدامها خطر على الحياة العقلية .. (صفحات من التاريخ الأولى لتوفيق الحكيم — دار المعارف)

الإيمان بالحياة

عام ١٩٤٨

في إحدى المصحات فتاة ، قاتلت الموت حتى انتصرت . وهي الآن في طريق الشفاء . تجلس الساعات الطويلة من فترة النقاهة تقرأ وتفكر وتتأمل .. وهي فيما يبدو قد فقدت بعض الإيمان بالحياة ، وخيل إليها أن الأفق ملبد بالظلام . فهي تمد يديها تلمس النور .. إنها كسفينة غالبت الأمواج ، وقارعت الأنواء ، وخرجت من زوبعة الليل بعد أن كاد يطويها اليم ، تتمايل وتتن باحثة عن الهداية في شعاع منارة أو خيط فجر .. اتجهت إلى أنا لأدعم إيمانها وأبدد جيرتها . وكان الواجب أن أحييها في رسالة خاصة ، فالأمر يعينها وحدها . ولكن خطابها الحامل عنوانها ضاع مني ، ووقعت أنا في حيرة من أمري لا أدري : أسكت عنها أم أخطبها في كتاب ؟ وأخذت الحل الأخير . لأنني خجلت أن أصم أذني وأقبض يدي عن نفس تتخبط في الشك وتطلب الغوث .. أيتها الفتاة ! .. أتدري أين المنارة التي تهديك إلى الإيمان ؟ هذه المنارة قائمة بين جنبيك .. إنها قلبك .. هذا القلب الذي ظل ينبض في أحلك ساعاتك ، كما ينبض محرك السفينة في أعنف ساعات العاصفة .. هذا القلب .. لماذا استبسل هكذا دفاعا عن الحياة ؟ .. لماذا لبث يدق دقات كأنها صرخات في وجه الفناء .. يفرعه بها ويرده

على أعتابه ؟ لماذا يسير بخطواته المنتظمة أو المضطربة الليل والنهار ، لا تهمد له حركة ولا تخد . له نبضة ولا يخرس له لسان ؟ .. إنه حارسنا ضد الموت .. إنه على حصن حياتنا الديدبان .. قلبك يذود عن الحياة ويناضل عنها نضال البطل ، لأنه يؤمن بالحياة . إنما الذى يشك هو عقلك .. هو تفكيرك ومنطقك .. هو ذلك الشيء المصطنع ميتا .. ذلك الشيء الذى اخترعناه وملأناه بأيدينا .. أما القلب المؤمن بالحياة ، الحارس لها الذائد عنها ، دون أن تتدخل فى عمله فهو ذلك الجزء الذى وضعه الله !.. لا يستطيع عقلنا ، لحسن الحظ ، أن يصدر أمره إلى القلب فتقف نبضاته ، كما يصدر أمره إلى الأيدي والأقدام فتقف حركتها .. لا أحد غير الله ، هو الذى يستطيع وحده أن يصدر أمره إلى القلب .. ولقد أمر الله تعالى قلبك أن يصمد للمحنة فصمد .. وما دمت قد انتصرت على الموت ، فلماذا لا تتصرين على الحياة ؟ .. ما الذى يخيفك من غدك ؟ أشباح ربما كانت تتصاعد من جوف كتبك ومطالعائك وتأملاتك .. ليس أفسى علينا من خيالاتنا .. ليس أفتك بنا من أيدي إرادتنا وصنع أيدينا .. وليس أرحم بنا من يد الله ، وما خلق وأبدع .. نصيحتى إليك أن تتركى الكتب برهة وتأملى الطبيعة .. استيقظى مع الفجر ، واستنشقى نسماته ، وأصغى إلى العصافير وهى تفتح أعينها وتترك أعشاشها ، وتقف قليلا فوق الأغصان المرصعة بالندى ، تنفض ريشها ، وتنششق وتنشر أجنحتها ، وينقر بعضها البعض مداعبا ، ويفر بعضها من بعض ملاعبا .. كلها غبطة بالفجر . وكلها فرح بالحياة .. لا يقعدها عن ذلك سحب ملبدة ، ولا جو مطير .. إنها تحتفى بالفجر فى اليوم المشرق واليوم المكفهر ، وتحفل بوجودها إذا صفا الأفق وإذا أظلم بالضباب ، وكأنها أنشودة الحياة تطير فى الجو ، صادحة منذ مطلع النهار ، تلقى فى سمع القلوب اليقظة المؤمنة ما يملؤها تفاؤلا بالوجود واستبشارا .. آيتها الفتاة .. هذا كل ما أستطيع أن أقوله لك .. لا تلتمسى المعونة عند مفكر ، ولا عند عالم ، ولا عند فيلسوف .. بل التمسها عند عصفور .. ذلك المخلوق الصغير الذى وضعت فيه قدرة الله إيماننا بالحياة ..

(فن الأدب ١٩٤٨)

نشيد السلام

عام ١٩٤١

كل شيء أمامي في الريف يرتل نشيد السلام .. فشجيرات الفول الخضراء ترقص مع النسيم ، وترسل في الفضاء من حولي أريج زهرها الأبيض كما ترسل القبلات المعطرة .. والبقرة ذات الأهداب الشقراء تتمطى في أشعة الشمس كأنها حسناء تستيقظ في فراش دافئ .. والكلب رابض قد أغمض عيناه وفتح أخرى تلقى على الكائنات نظرات الرضا والصفاء .. والدواجن والهوام والأرض السمراء وجداول الماء . كلها بأصواتها الصغيرة وأزيزها اللطيف وصمتها الدائم وخريرها الهامس تتراءى للمتأمل كأنها تتبادل حوارا خفيا منعما بكلمات الود والحب والإخاء الأبدى ، وكأنها جميعا في حركتها وسكونها جوقة موسيقية تخضع ليد غير منظورة ، كى توقع لحنا متناسقا أزليا لا يسمعه غير الأنبياء والشعراء .. صوت واحد نشز في أذنى عن هذه المجموعة : هو صوت الإنسان .. فمتى ظهر ظهرت معه الفوضى ، ونشأ الخلاف حيث لا ينبغي أن يكون خلاف .. تلك طبيعته .. وقد تكون تلك أيضا عبقريته ..

(من البرج العاجى ١٩٤١)

مناقشة

عام ١٩٤٤

لم يزل موضوع الأدب العربى ومستقبله فى حاجة إلى كلام ، على الرغم من الأدلة القوية التى ساقها « أحمد أمين » فى رده على كلمتى السابقة .. وأخشى أن يتبادر إلى

الذهن أننا نتجادل في قضية لنا فيها مصلحة .. فالواقع المعروف أن أكثر مؤلفات أحمد أمين مثل « فجر الإسلام » و « ضحى الإسلام » بعيدة عن الاتجاه القومي أو الاجتماعي الذي يرجوه لأدبنا العربى . كما أن بعض كتبى مثل « عودة الروح » و « يوميات نائب في الأرياف » قد رمت بالفعل إلى هذا الهدف منذ زمن .. فأنا إذن أقرب إلى تلك الدعوة ولى في نجاحها مصلحة أكثر مما لصديقى « أحمد أمين » .. ولكن العقيدة الأدبية والإيمان الفنى أقوى عند كل منا وأرفع من المصالح الخاصة والغايات الشخصية.. فمناقشتنا اليوم تقوم في جوهرها إذن على الرغبة المجردة في الوصول إلى غرض واحد : هو كيف نبلغ بأدبنا العربى قمة الكمال ؟ الغاية واحدة ولا ريب ولكن السبل مختلفة : « أحمد أمين » يرى أن أدبنا العربى لن يصل إلى مرتبة الآداب الأوروبية إلا إذا خاض مثلها في طريق الحياة العامة : فنقد الفاسد من أوضاع المجتمع . وقوم المعوج . واقترح وسائل الإصلاح . ونادى بالنافع من العلاج والمستحدث من النظم . وكان له من أعلامه مركز القيادة للرأى العام .. وهنا يجدر بنا أن نسأل : هل من الحق أن الأدب الأوروبى بلغ مبلغه هذا بفضل نزوله معترك الحركات الإصلاحية فقط ، أو بفضل قيمته الفنية ومزاياه الأدبية ؟ وهل نزعات الإصلاح الاجتماعى هى اللون الغالب في الآثار الأوروبية أو أنها لون ليس بالغالب حتى في آثار المؤلف الواحد ؟. إن الآداب الأوروبية لم تحترم يوما فنانا أو أدبيا لأنه مصلح ، ولكنها قد تحترم المصلح إذا كان أدبيا أو فنانا .. نحن الشرقيين تبهر عيوننا دائما كلمة « مصلح » بقدر ما نستهيئ بكلمة « فنان » .. وإني لا أنسى دهشتى يوم قرأت في مجلة « ماريان » الباريسية نقدا للطبعة الفرنسية من « يوميات نائب في الأرياف » يقول فيه ناقدنا المعروف : « إن القارئ لهذا الكتاب ينسى المقاصد الإصلاحية التى حركت المؤلف لوضع كتابه ، بل قد يتمنى ألا يتغير شئ في عالم هذه المخلوقات الإنسانية » . صدمنى هذا القول لأنى كنت أعتقد أن مقاصد الإصلاح لها الاعتبار الأول ، وأن صفة المصلح هى التى توضع موضع التقدير .

إن الفنان ليس مصلحا ولكنه هو صانع المصلح .. وكل أولئك المصلحين من ملوك وزعماء وساسة ما كونهم وهياهم لرسالات الإصلاح غير أدب الأدباء

وشعر الشعراء وفن الفنانين .

إن قيادة الرأي العام واجبة على الأديب .. ولا ينسى « أحمد أمين » ندائى إلى الأدباء أن يتسلموا القيادة الروحية والفكرية فى أول هذه الحرب ، وما قام حول هذا النداء من جدل .. ولكن الذى أراه خطرا على الأدب هو قهر الأديب على أن يتجه اتجاهها بعينه فى صميم فنه ، وحسبنا أن نتأمل حال الأدب فى البلاد التى كبلت وحى الأدباء بالقيود فلم تخرج من قلوبهم إلا كتابات مفتعلة ، تفوح برائحة واحدة كأنها خارجة من مطبخ واحد .. إن الفن هو الحرية . وقد دخل الأستاذ « العقاد » وصديق الطرفين فى المناقشة ، رابطا الحرية بالفردية . وقال : « إن اتجاه التاريخ الإنسانى متقدم من الاجتماعية إلى الفردية ، إذ الفردية هى عنوان الكرامة الإنسانية .. هى شعور الإنسان بقيمة فكره وإحساسه لا بفكر الجماعة وإحساسها ! إن الحيوان لا يفكر بفكره ولا يحس بإحساسه .. إنما هو يفكر ويحس بعريضة الجماعة كلها والنوع كله .. ولن يرقى الحيوان إلى مرتبة الإنسان إلا إذا استقل فى تفكيره وإحساسه .. إن الوعى الجماعى فى الحيوان هو الذى جعل الحيوان حيوانا ، والفردية أى الحرية هى التى جعلت الإنسان إنسانا » ..

(مجلة الرسالة ١٩٤٤)

الواقع والخيال

عام ١٩٤٢

قرأت المقالات التى نشرت أخيرا تعقيا على ما جاء خاصا بالعقاد وقلة الالتجاء فى الفن إلى الخيال والاختراع ، فلم أر بينها ما هو جدير بالالتفات غير رد « العقاد » نفسه .. ورأى فى ذلك يشابه رأى العقاد لأن اعتماده على الواقع فى قصته « سارة » (١٩٣٤) يشابه اعتماده على الواقع فى « عودة الروح » (١٩٣٣) ، فلا ينتظر منى إذن أن أنتقص من قيمة الأعمال التى تبنى على الواقع .. على أن الحقيقة هى أن

العمل الفنى مخلوق جديد وكائن مستقل عن ذلك الواقع الذى يعيشه الفنان ويزعم أنه رواه بحذافيره . كان « جوته » يقول إن أقدر كاتب لا يرى مما يحيط به غير واحد فى المائة ، ولا يعنى ويفهم مما رأى أكثر من واحد فى المائة ، ولا يستطيع أن ينقل إلى الناس مما وعى وفهم وأحس أكثر من واحد فى المائة .. إن الخيال فى العمل الفنى العظيم لا ينبغى أن يكون سوى وسيلة من وسائل إعادة الروح إلى تلك المشاعر الحقيقية التى صنعها الله وكادت تجرفها اللحظات الجارية لولا يد الفنان .. كلا .. إن الفنان ليس محرر تقارير ، إنما هو مقرر عواطف ومشاعر ، وليست الأمانة المطلوبة منه هى فى نقل الحوادث والوقائع ، إنما هى فى نقل الإحساسات الدقيقة والمشاعر الصادقة إلى جميع النفوس . إن المعول عليه فى الفن أن يستطيع الروائى وهو يسرد الحادث كما وقع كشف الستار قليلا عن تلك القوانين الخفية والحقائق الثابتة التى تحرك الأشياء والكائنات .. وهنا الفرق بين الصحفي والفنان : إن الصحفي يروى لك حادثا وقع فلا ترى غير مجرد الحادث . أما الفنان فيقص عين الحادث ، فإذا أنت قد غمرت فى جو آخر .. وإذا الحادث قد اتخذ وجهها آخر .. وإذا الحادث قد انفجرت خلفه أشياء لم تكن بادية للعين العابرة .. إن يد الفنان كيد الساحر تلمس كرة البلور كما هى ، ولكنك ترى فيها وتقرأ مناظر وأشياء لم تكن فيها من قبل ..

(تحت المصباح الأخضر ١٩٤٢)

المرأة والفن

عام ١٩٣٨

إنى — إذ أتكلم عن الفن — لا يسعنى إلا أن أعترف مرغما أن المرأة هى روح الفن . ولو لم توجد المرأة على هذه الأرض فرجما وجد العلم ، لكن المحقق أنه ما كان يوجد الفن .. ما من فنان على هذه الأرض أبدع شيئا إلا فى ظل امرأة .. وهذا القول منى غريب .. ولأبادر بتوضيح قصدى ، حتى لا يقال إنى رجعت إلى فضيلة الحق ،

وأعنى الحق الذى تريده المرأة .. كلا .. إني لم أرجع إلى هذه الفضيلة بعد حتى لا تشمت بي « هدى شعراوى » .. وكل ما فى المسألة أنى دائما أفرق بين المرأة كشىء يوحى بالجمال ، وبين المرأة كمخلوق يريد أن يستأثر بكل شىء فى حياتنا .. إن عداوتى لهذا المخلوق لن تنقطع مادمت أخشى منه .. إنها كالطبيعة . فى يديها العبقريتان : عبقرية الفناء وعبقرية البناء .. وإنه لمن المستحيل أن نرى فى التاريخ حضارة قامت بدونها ولا انحطت بدونها .. وإن عرشها فى مملكة الفن أظهر العروش .. ومن يفتح أى كتاب من كتب العرب القديمة يجد وصف تلك المجالس التى كانت تصدرها نساء كالشموس ، وتضم فحول الشعراء والمغنيين ، ويقرأ تلك الأخبار عن الجوارى المثقفات والنساء الشريقات ، ممن كن ينظمن فى السروالعلن .. تلك المجالس التى فيها نظم أجمل الشعر ، وتفتحت أزاهير أنبغ القرائح .. ونقرأ عن « علية » أخت « هارون الرشيد » وما كان لها من ذوق فى فتون الشعر والعناء ، أثر فى كبار الفنانين والشعراء .. وإذا قيل إن مصر الحديثة لم تر بعد فنا ناضجا (مماثلا لفن الشعر فى العصور العربية الزاهرة) ومن تم لم تبد أمام العالم بعد فى ثوب الأمة المتحضرة ، فإن السبب هو أن المرأة المصرية ذات الذوق والروح ما زالت فى مصر نادرة الوجود .. وأن اليوم الذى توجد فيه المرأة العظيمة التى تكرس بعض همها لإيقاظ هم الفنانين وتنشيط الحركة الفكرية ، هو اليوم الذى تقترب فيه من المدنية الحقيقية ..

(نحت شمس الفكر ١٩٣٨)

في الشعر

أستجسد الصبر فيكم وهو مغلوب
 وأسأل النجوم عنكم وهو مسلوب
 وأبتغى عنكم قلبا سمحت به
 وكيف يرجع شيء وهو موهوب
 ما كنت أعلم ما مقدار وصلكم
 حتى هجرت وبعض الهجر تأديب
 (مهيأ الديلمى)

* *

ظبى يتيه بسوردة في خلد
 خلد عليه غلائل من ورده
 ما كنت أحسب أن لي مستمعا
 في قربه حتى بليت يعده
 لا شيء أحسن منه ليلة وصلنا
 وقد اتخذت نخدة من خلد
 وفمى على فمه سامر ريقه
 ويدى تنزه من حدائق خلد
 (أبو تمام)

* *

حبلى نسيم الريس
 قساذنى إلى الصحرأ
 لقد حمل إلى النسيم رائحته
 وأخذ منى راحتي

لقد جئت في الطريق
الذي عفرته قدماها
فلم تدن مني
لقد ارتفعت تهداتي
فأزعجت نسوم الطيور
فلم تفتح عينيها
ولو إلى أمامها مت محترقا
لما أطفأت لهبي بأنفاس شفيتها
(حافظ الشيرازي)

* *

ليس الجمال بمزور
فأعلم وإن رديت بسردي
أن الجمال معادن
ومن اقاب أورث من مجدا
كم من أخ لي صالح
بوأته يدي لحدا
ذهب الذي من أحبهم
وبقيت مثل السيف فردا
(عمرو بن معديكرب)

* *

في تطبيق الشريعة

إن البحث في وجوب تطبيق الأحكام الشرعية يستلزم تتبع المسار الذي سلكته هذه الأحكام من مبدأ العمل بها إلى ما انتهت إليه اليوم . ومعرفة ما أزيل منها في مجتمعنا الحاضر وما ترك باقيا حتى الآن . والنظر في قانوننا المدني الذي نطبقه ، لنستخرج ما يختلف مع روح الشريعة وما يتفق .. وكذلك قانوننا الجنائي والتجاري .. ماذا أهمل وماذا أخذ ؟ كل ذلك لابد فيه من إحصاء دقيق يوضع تحت نظرنا ، حتى يجرى الكلام فيه على أساس العلم اليقيني الذي كان يمارسه السلف الصالح في عصور الإسلام الزاهرة .. ومن ذلك ما أورده بعض كبار المفسرين والعلماء عن منشأ عقوبة السرقة كما جاء ذكرها في الآية الشريفة من سورة (المائدة) : ﴿ والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما ﴾ . قال القرطبي في تفسيره لأحكام القرآن عن منشأ هذه العقوبة ما نصه : « وقد قطع السارق في الجاهلية ، وأول من حكم بقطعه في الجاهلية الوليد بن المغيرة ، فأمر الله بقطعه في الإسلام . فكان أول سارق قطعه رسول الله ﷺ في الإسلام من الرجال الخبار بن عدى بن نوفل بن عبد مناف ، ومن النساء مرة بنت سفيان بن عبد الأسد من بني مخزوم . وقطع أبو بكر يد الرجل اليمنى الذي سرق العقد (عقد أسماء بنت عميس زوج أبي بكر الصديق رضي الله عنه فقطع يده اليسرى) . وجاء عن الميراث في تفسير القرطبي أيضا ما نصه : « واحتلفت الروايات في سبب نزول آية المواريث ، فروى الترمذي وأبو داود وابن ماجه والدارقطني عن جابر بن عبد الله أن امرأة سعد بن الربيع قالت : يا رسول الله إن سعدا هلك وترك بنتين وأخاه ، فعمد أخوه فقبض ما ترك سعد ، « وإنما تنكح النساء على أموالهن » فلم يجبها في مجلسها ذلك . ثم جاءت فقالت : يا رسول الله ابنتا سعد .. فقال رسول الله ﷺ : ادع لي أخاه . فجاء : فقال له : ادفع إلي ابنتيه الثلثين وإلى امرأته الثمن ولك ما بقي » فنزلت آية المواريث .. كذلك نزلت الآية في الزنا بقوله تعالى : ﴿ الزانية والزاني فاجلدوا كل

واحد منهما مائة جلدة ﴿.. ولكن في صحيح مسلم عن البراء بن عازب قال : « مر على النبي ﷺ يهودى محمما — أى طلى وجهه بالفحم — مجلودا فدعاهم وقال : أهكذا تجدون حد الزانى فى كتابكم ؟ قالوا : نعم .. فدعا رجلا من علمائهم فقال له : نجده الرجم ، ولكنه كثر فى أشرافنا فكنا إذا أخذنا الشريف تركناه وإذا أخذنا الضعيف أقمنا عليه الحد . فقال رسول الله ﷺ : ﴿ اللهم إني أول من أحيا أمرك إذ أماتوه ﴾ فأمر به فرجم ﴾ .. وجرى فى هذا كلام كثير عن الحكم الذى ينزل به القرآن وتأتى سنة الرسول بحكم آخر .. نخلص من هذا إلى أن الكثير من أحكام الله المتعلقة بشئون الناس ومجتمعهم إنما تنزل غالبا فى قضية طرحت ، وفى واقعة وقعت . وعندئذ قد يجوز لنا النظر فى حالة وقوع الحادثة ، وطرح قضيتها يفكر فيها الناس ، ويعرضونها على النبى ، وفى حالة نزول الآية بالحل المؤيد أو المعدل لما رآه النبى أو طلب فيه الاستعانة بحكمة الله . إذا كان الأمر كذلك فمغزاه أن الله تعالى يترك لرسوله وللناس فى بعض الحالات فترة يفكرون فيها لأنفسهم من واقع ظروف واقعهم وحياتهم وما يصلح لهم قبل أن ينزل لهم الآية بالهداية .. فأرادة الله تعالى ، كما يمكن أن نستشفها من آياته الكريمة ، فيها التشجيع للناس على أن يفكروا ويختاروا لأنفسهم ما ينفعهم وأن يجتهدوا فى ذلك تبعا لعقولهم الحرة . وقد نهاهم الله تعالى عن اتباع عادات أسلافهم اتباعا أعمى بغير تفكير .. ويكون هنا المبرر والمنبع لاجتهاد المجتهدين بعد انقطاع الوحي السماوى ، على أن يكون الاجتهاد منصبا على المنفعة للناس .. ونحن نعيش اليوم فى عالم يتحرك بسرعة فى دوامات من ظروف متغيرة مما نشأت معه قضية كبيرة : هى قضية الملائمة بين مقتضيات فقه الشريعة ومقتضيات هذا المجتمع المتحرك بظروفه الجديدة وما يلائمه من منفعة . وما كان النبى صلوات الله وسلامه عليه يرفض منفعة لمجتمع ، حتى ولو جاءت كما رأينا من الجاهلية .. وقد قيل فى مسألة النخيل رأيه ، ورأى النبى عندما لم يأت بالنتيجة المطلوبة فقد ترك الأمر للناس يعالجون ذلك بطريقتهم قائلا لهم : « أنتم أدرى بشؤون دنياكم » . فما أحوج فقه الشريعة الإسلامية اليوم إلى مجتهدين من فضلاء علماء الدين والعقول المستتيرة من المؤمنين ممن يبحثوا فى جوهر الدين وهدفه .. وليس فقط فى مظهر الدين ولفظه ، وتبحروا وتعمقوا فى دراسة

مطالب المجتمع الجديد ولوازم معيشتة وتقدمه ، ليفسروا نصوص الدين تفسيرا يتمشى مع إرادة الله تعالى من صلاح دينه لكل زمان ومكان ، حتى زمان الإنسان الحديث بكل اكتشافاته التي هيا لها الله تعالى إمكان الظهور لتتفع الناس وتمكث في الأرض .. ولا بد من العلم لهم .. ولا يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون ..

في العقوبات والحدود

كان لي رأى ذكرته في كتابي « التعادلية » في طبعة عام ١٩٥٥ وهو الإبقاء على عقوبة الإعدام . لأنه لا شيء يعادل حياة الإنسان غير حياة الإنسان ، وكما جاء في القرآن الكريم : ﴿ ولكم في القصاص حياة .. ﴾ أما بقية الجرائم التي يعاقب عليها عادة بالحرمان من الحرية (وهي التي نبعت من الثورة الفرنسية لأن قتلها كانت العقوبات جسدية) هي التي يجب أن تتغير وتوضع على أساس آخر : ليس بين الحرية والشر . بل بين الخير والشر . بمعنى أن من يرتكب فعلا يضر الغير يجب أن يعادله بفعل ينفع الغير .. وعلى هذا يجب أن تلغى السجون ويقام بدلا منها مصانع وأدوات إنتاج .. كما إني أفضل الحد الشرعي بالجلد .. فمصادرة الحرية في عصرنا هذا لم تعد عقوبة رادعة . وخاصة بعد المطالبة بتحسين السجون لتصبح حجراتها مثل حجرات الفنادق ، مزودة بوسائل الراحة .. فالأسرع والأردع عقوبة الجلد العلني إذا نفذ في الكبير والصغير على السواء .. ولا عبرة لما يقال أن في الجلد إهدارا للكرامة الإنسانية ، فالتعذيب البدني يمارس اليوم سرا في المعتقلات بأشد وأفظع من الجلد الشرعي !

في الحضارة والسلام

عام ١٩٤١

كانت أشد صدمة هزت نفسي في السنوات القلائل التي تلت الحرب العالمية الأولى هي اهتزاز إيماني في التقدم الإنساني ! لقد كنت أتابع وقتذاك آمال الساسة والكتاب والمفكرين في السلام .. وأطالع آراء ماركس وتلاميذه في الدولية واللاعسكرية التي تخلصنا من الاحتلال الإنجليزي .. كما كنت غارقاً أيضاً في تلك الأحلام التي نسجها لنا هداة البشر وقادته الروحيون .. بأن الأوان قد آن عقب تلك الحرب المروعة لزوال الحواجز بين الأمم .. واتجاه البشرية أخيراً إلى تحقيق ذلك المجتمع الإنساني الأعلى الذي يجعل من سكان هذا الكوكب إخوة أحراراً . لقد ظننت أن تلك الحرب العظمى بفظائعها ومخازيها قد ردت البشر .. ولكن وأسفاه!.. فوجئت بما هالني .. لقد ارتدت البشرية بغتة إلى الوراء ، وأن من كنا نحسبه إنساناً متحضراً قد عاد يصيح صيحات الغابة .. وخفت صوت القائلين بالدولية واللاعسكرية وارتفع صوت الناعقين بحق الأقوى في سجن الآخرين .. صوت « هتلر » .. وما أصدق قول المفكر الألماني « كيسرلنج » : « ما الإنسان إلا مخلوق تتركز فيه قوى روحية وقوى أرضية . جوهره العميق ذلك الذي قد يعد خالداً هو روح خالص . ولكن هنالك حقيقة تسترعي النظر ، هي أنه منذ ليل الأزمان والأديان ما برحت تمضي على اتباع تعاليم الروح .. فهل صادفت غير نجاح قليل . بينما كانت نوازع الأرض والدم تقبل أيسر القبول في شيء من الخضوع الطبيعي .. هذه الحقيقة وحدها تثبت لنا أن ثمانين في المائة من المخلوق البشري تتألف من العناصر الأرضية التي تدخل في نطاق العالم الحيواني والنباتي .. » ما أقسى هذا الكلام على من يؤمن بالتقدم الإنساني . ينبغي مع الأسف أن نتوقع إذن في كل حين ثورة هذه الثمانين في المائة على العشرين الباقية .. تتمثل لذهنى أيضاً صورة رسمها المفكر الأمريكي « جيمس روبنسون » : فقد افترض أن حياة

البشرية (وهى التى تقدر أحيانا بخمسمائة ألف سنة) وللتبسيط جعلها خمسين عاما فقط فماذا وجد ؟ وجد أن تسعا وأربعين سنة من هذه الخمسين قضتها البشرية فى حياة الصيد الأولى .. أما السنة الأخيرة فقد كان ينبغى أن يمضى منها أيضا ستة شهور قبل أن تخرج الكتابة . ثم ثلاثة شهور أخرى للوصول بالأدب والفن والفلسفة إلى قممها . ولم يتطلب ظهور الطباعة غير ليلة واحدة ، وآلة البخار غير أسبوع ، ويومان أو ثلاثة لتخوض البواخر فى عرض البحار .. ولم يبق غير يوم واحد لاكتشاف الكهرباء .. وأخيرا لم تبق غير ساعات لاستخدام أحدث المخترعات ، لإثارة حروب عظمية .. ولأتم قول هذا العالم الأمريكى أقول : حروب عظمية قديمة على تدمير الإنسانية وإعادتها من جديد إلى حيث كانت منذ عام (إلى حياة الصيد الأولى) . ولنستمع كذلك هنا إلى قول « كيسرلنج » : « إن الخط البارز والمظهر الحاضر هو الاقتصاد » أى « الغذاء » أى مطالب الأرض والدم .. أى أن كل شيء اليوم خاضع للشطر « غير الروحي » للكائن البشرى .

على أن الذى هالنى هو ذلك الأثر الذى أحدثه طغيان القوى الأرضية فى بعض رجال الروح والفكر أنفسهم .. عند ذلك بادرت بنشر ذلك النداء إلى رجال الفكر أقول فيه : « لكن كان صوت أقدام القوة الوحشية وهى تسحق الأمم الحرة لم يزعج بعد رجالنا السياسيين المتنازعين ، فإن تدبر الدمار المسلط على شئون الفكر والروح كفيل بأن يوحد جهود رجال الفكر ، وأن ينهضهم متساندين للدفاع بأقلامهم وقلوبهم عن حضارة أسهم أسلافهم فى وضع أحجارها الأولى ..

(سلطان الظلام ١٩٤١)

دين متين

عام ١٩٤١

حدث في الأسبوع الماضي أمر أحب أن أسجله هنا : هو قيام القيامة في الجامعة ضد كتابين قيمين ، لأنه قد ورد فيهما ما فهم على أنه طعن في الإسلام .. ولا أريد أن أنظر إلى الأمر من ناحية التفكير الحر ، ولا من حيث تأثير هذا الموقف في الحياة العقلية للجامعة لبلد متحضر .. لكنني أريد أن أبحث المسألة من جهة الدين نفسه .. وهنا يبدو لي العجب : لماذا كل هذا الفزع كلما وقع بصرنا على عبارة تمس الإسلام ؟ إن الكتب التي عالجت المسيحية وتعرضت للمسيح بالطعن والتجريح تطبع وتنتشر في أوروبا دون أن يخشى أحد على كيان المسيحية .. ذلك أن الجميع يعلمون أن الأوان قد فات للخوف من مثل هذه الصيحات .. كذلك نستطيع أن نقول في الإسلام .. إن هذا الدين المتين الذي عمر نحو أربعة عشر قرناً وثبت لأحداث الزمان ، وشاهد دولاً تدول وعروشاً تزول ، ولا يمكن أن يتعرض للخطر أمام كتاب يؤلف أو عبارات تقال .. إن هذا الفزع منا لأكبر مسبة لدين عريق عميق .. كذلك يدهشني أن ينشأ هذا الفزع في جامعة عصرية ، يؤمها شباب انغرس في قلبه العقيدة الحارة ، فلا خوف الآن عليه من مناقشة المسائل العقلية في جو الحرية .. إني أعتقد دائماً أن صحة العقل وصحة العقيدة كصحة الجسم .. لا بد لهما من الهواء الطلق لاكتساب المناعة .. وأن حبس العقيدة والعقل في قفص من الزجاج ، خوفاً عليهما من خطرات النسيم معناه إنشاؤهما على بنية عليلة وكيان سقيم ..

(من البرج العلاجي ١٩٤١)

الزوجة الرحيمة

عام ١٩٤٥

ذكرني حمارى ذات ليلة بعهد اشتغالى بالقضاء . وطلب إلى أن أتصور جلسة قضائية فى محكمة ترأسها امرأة ، لما يتوهمه من رأى فى المرأة . وتركته آخر الليل وذهبت إلى فراشى ونمت نوما عميقا .. وحلمت . ورأيت فى الحلم أنى رجل متزوج ! يا للكارثة .. ومتزوج بمن ؟ بسيدة تشتغل بوظيفة فى القضاء .. إنها قاضية فى محكمة مصر الأهلية .. ودقت فى الحلم الساعة الثانية ، وشعرت بالجوع . والسيدة حرمى لم تعد إلى المنزل بعد .. ولكن ماذا تصنع زوجتى فى المحكمة حتى الآن ؟ ودفعنى حب الاستطلاع إلى الذهاب إلى المحكمة ، وسألت عن الست فقيل لى إنها فى الجلسة فهى منتدبة قاضية إحالة . وتنظر الآن فى جناية قتل . فدخلت قاعة الجلسة وجلست بين جموع المشاهدين . فشاهدت الآتى : زوجتى المصونة والجوهرة المكنونة ، متصدرة المنصة ، ولم تنس أن تمر مر الكرام على وجهها بقليل من « البودرة » ولأن تخط على فمها خطا أحمر . فالمرأة هى دائما المرأة .. وكانت لابسة رداء أسود . ولكنها حلت بعض أزراره عمدا فكشف من تحته عن ثوبها « الكريب دى شين » الوردى الذى تقاضتني ثمن تفصيله منذ أيام .. وكان دفاع المحامى سيبدأ . فقد أبصرت القاضية الفاضلة مستغرقة كل الاستغراق فى الإصغاء إليه .. وكان ذلك المحامى شابا وسيما بمن يحسنون تلميع شعورهم وتنعيم وجوههم وتنعيم أصواتهم .. فوقف متجها بكل جوارحه نحو الست زوجتى .. وجعل هذا المفتون المأفون يتأيل تارة ويرتب بأنامله نظم شعره تارة أخرى ويقول : « يا حضرة الرئيسة .. هذه القضية قضية الحب . قضية القلب .. قضية متهمة تعسة لم ترتكب شيئا غير الإصغاء إلى صوت قلبها .. ومتى كان الاستماع إلى نداء القلب جريمة ؟ . تهم النياة موكلتى بأنها قتلت زوجها بالسم لتفر مع حبيبها .. هذا صحيح .. وقد اعترفت فى محضر

التحقيق .. نعم .. لقد لجأت إلى القتل .. ولكن فلنسأل لماذا فعلت ذلك ؟ .. لقد خدعها أهلها وزوجوها بمن لم تحس معه لهيب ذلك الحب الجارف الذى قرأته فى القصص وشاهدته فى السينما .. يا للهول ! .. أسيقدر لها أن تعيش حياتها دون أن تعرف هذا الهناء ؟ الحب هذا حقها .. حق كل فتاة .. وكأن كل جريمة موكلتى أنها نالت هذا الحق .. فقد وجدت ضالتها فى صورة شاب جميل تبعها يوما فى الطريق وعرف رقم تليفونها ، فوالاها بعنايته وبثها هواه ولوعته ، وسألها أن تصفى إلى ترانيم الغرام ونداء الهيام ، وترك بيت الزوجية وتبعه إلى الفردوس المفقود والنعيم المنشود .. ماذا تصنع هذه الزوجة المسكينة ؟ من حسن حظها يا سيدتى الرئيسة أن القاضية لهذه المتهمة البائسة امرأة مثلها ، فما من أحد يفهم قلب المرأة العاشقة غير المرأة .. ولم تنطق حضرة الرئيسة .. (زوجتى) ولكنها تهتدت .. واستمر المحامى الرشيقي يقول : « كانت أمام موكلتى عقدة يجب حلها ، وعقبة فى سبيل هوائها يجب تذليلها : زوجها . إنها كانت تعلم أن هذه الزوج يعبدها عبادة .. وأنه إذا علم بفرارها انتحر لا محالة وقتل نفسه أشنع قتلة .. أتركه يضع السكين فى فؤاده ؟ .. كلا .. إنها زوجة طيبة القلب رقيقة الحاشية حية الضمير .. وكان واجبا عليها أن تؤدى واجبها المقدس نحو زوجها الأمين .. وقد فعلت . واختارت له ووفقت فى الاختيار نوع السم الذى لا يشعره بعذاب ولا ألم .. فقاطعته القاضية الكريمة زوجتى سائلة : من فضلك السم ده اسمه إيه ؟ .. وهنا لم أطلق صبرا . ولم أستطع احتمالا ولا انتظارا .. فنهضت مرتاعا وخرجت من قاعة الجلسة وأنا أقول : قسما بالله العظيم ما اتغدى فى بيتنا بعد اليوم .. وأعمانى الذعر ، فعثرت قدمى بعتبة باب الجلسة ، فهويت على الأرض .. وعندئذ فتحت عيني ، فإذا أنا متدحرج من فوق السرير على أرض الحجر .. فقممت أفرك أجفاني وأقول : « الحمد لله أنى سليم معافى ولم أتزوج ! ولن أتزوج أبدا .. حتى إذا اختارنى ربي إلى جواره وأدخلنى الجنة ، فسوف أطلب إليه تعالى أن يكون بينى وبين الحور سور » ..

(حمادى قال لى ١٩٤٥)

في الحوار

أدهشني رئيس المجمع اللغوي « أحمد لطفى السيد » عندما قال لي يوما أن مسرحيتي « الأيدي الناعمة » عمل ممتاز ووصفها بالفرنسية : « شيديفر » . في حين أنها عندي ليست أكثر من فكاهة عن « برنس » أمير صادرت أمواله ثورة ١٩٥٢ وتركت له قصره الفخم ولا عمل له يقتات منه . فأسكن معه دكتور آداب في النحو اتضح أنه هو أيضا عاطل ، وأخيرا وجدا موظفا بالمعاش هو الحاج « عبد السلام » قبل أن يطعمهما مقابل سكنه معهما بالمجان مع أسرته . وهذا جزء من حوار المسرحية حول « النجوم » ربما كان هو سبب إعجاب لطفى السيد :

عبد السلام : (لدكتور النحو) أريد أن أسألك سؤالاً دقيقاً .. أنا لا أريد أن تنحاز إلى أحد الطرفين .. وقد وصفت لي مزايا كل منهما ..

الدكتور : وماذا قلت عن صفات البرنس ؟

عبد السلام : وما دخل البرنس هنا ؟

الدكتور : ليس هو إحداهما ؟

عبد السلام : أتمزح في العلم يا دكتور .. أحدهما سيويوه والآخر الفراء ..

الدكتور : آه .. قصيدك سيويوه والفراء ؟ .. اليوم سأحدثك عن نفطويه ..

عبد السلام : ومن هو نفطويه ؟

الدكتور : هو الذى قال فيه ابن دريد :

لو أوحى النحو إلى نفطويه

ما كان هذا العلم يعزى إليه

أحرقه الله بنصف اسمه

وصير البساق صياحاً عليه

عبد السلام : شيء لطيف ! نفطويه .. أحرقه الله بنصف اسمه أى (نفط) ..

وصير الباقي أى (ويه) صياحاً عليه ! ..

الدكتور : هذا نوع يسمى الاشتقاق ، استخرجه الإمام أبو هلال

العسكري ، وذكره في آخر أنواع البديع من كتابه المعروف

بالصناعتين .

وعرفه بأن قال : هو أن يشتق المتكلم في الاسم العلم معنى في غرض يقصده من مدح أو هجاء .

عبد السلام : هذا حقا نوع بديع في علم البديع .

الدكتور : عبارتلك هذه تسمى في هذا العلم « التطريز » . وهو نوع يتبدى فيه المتكلم بذكر جمل غير منفصلة ثم يخبر عنها بصفة واحدة من الصفات مكررة بحسب العدد الذى قرره وقدره في تلك الجملة الأولى ..
كقول ابن الرومى : قرون في رؤوس في وجوه صلاب في صلاب في صلاب ..

عبد السلام : ولكن هذا شعر غير ..

الدكتور : غير لطيف .. أنا معك .. إليك مثلاً آخر . ربما كان اللطف : كان الكأس في يدها وفيها عقيق في عقيق في عقيق ..
عبد السلام : حقا .. هذا شعر لطيف .. يعنى أن الكأس ويدها وفمها عقيق في عقيق في عقيق ..

آه .. ذكرتنى بأيام الشباب !.

الدكتور : أيام شبابك يا عمى الحاج !.. زماننا غير زمانكم .. لدينا مشكلات كالصخور .. هل تنبت تحت الصخور بذور ..

عبد السلام : إنك تتكلم بالألغاز ؟!...

الدكتور : على ذكر الألغاز .. في علم اللغة .. أقصد علم البديع نوع يسمى المحاجة والتعمية .. وهو أن يأتي المتكلم بعدة ألفاظ مشتركة من غير ذكر الموصوف ، ويأتى بعبارات يدل ظاهرها على غيره وباطنها عليه كما قال علماء هذا الفن .. وإليك قول أحد الشعراء في وصف كوز :
وذى أذن بلا سمع له قلب بلا قلب

إذا استولى على حب فقل ما شئت في الصب

عبد السلام : شئ ظريف !.

الدكتور : أظرف من ذلك ما قيل في وصف التعلم .. افرض أصبعي قلما (يمثل بأصبعه حركة الكتابة في انحناء القلم ، وفي نثر الخبر من طرفه ، وفي حركة بريه) :

وذى خضوع راعع ساجد

ودمعة من جفنه جارى

مواظب الخمس لأوقااتها

منقطع في خدمة البارى

عبد السلام : (يضحك وهو يمثل بأصبعه برى القلم) في خدمة البارى ا..! حقا ظريف ! أنت بحر في العلم يا دكتور !..

(المسرح المنوع ١٩٥٤)

في الشعر

حب السلامة يشئى عزم صاحبيه
عن المعالى ويغرى المرء بالكسل
لو أن في شرف المأوى بلسوغ منى
لم تهرح الشمس يوما دارة الحمائل
أعلل النفس بالآمال أرقبها
ما أضيق العيش لولا فسحة الأمل
عادة النصل أن يزهى بجوهـره
وليس يعمل إلا في يدي بطـل
ما كنت أوثـر أن يمتد لي زمنى
حتى أرى دولة الأوغاد والسفـل
هذا جزاء امرئ أقرانه درجـسوا
من قبله فتمنى فسحة الأجل

وإن علاني من دوني فلا عجب
لى أسوة بالخطاط الشمس عن زحل
(الطغرائى)

* *

قالسوا كبرت عن الصبى
وقطعت تلك الناحية
فدع الصبى لرجالـه
واخلع ثياب العارية
ونعمم كبرت وإنما
تلك الشمائل باقية
وتفوح من عطفى
أنفاس الشباب كما هيـه
ويميل إلى نحو الصبى
قلب رقيق الحاشية
فيه من الطرب
القديم بقية فى الزاوية
(البهاء زهير)

* *

أن يخدم القلم السيف الذى خضعت
له الرقاب ودانت خوفه الأمم
فالموت والموت لا شيء يعادله
ما زال يتبع ما يجرى به القلم
بذا قضى الله فى الأقالـم
أن السيوف لها مذأر هفت خدم
(ابن الرومى)

* *

أف لرزق الكتبة
أف له ما أصعبه
يرتشف الرزق به
من شق تلك القصة
يا قلم يرفع في الطرس
لوجهى ذنبه
ما أعرف المسكين
إلا كاتباً ذا متربة

(كاتب مجهول)

معجزة الدين

عام ١٩٤٨

لماذا لا يظهر في هذا العصر أنبياء ؟ سؤال يطرحه كثيرون ولا يتلقون عنه جواباً مقنعاً .. لقد ظهر في هذا العصر من يدعى شفاء الأمراض .. ومن يزعم الاتصال بأرواح الموتى .. ولكن قلما يظهر من يدعى النبوة .. لماذا ؟ السبب ربما هو أن المتنبىء يعلم أنه سوف يطالب بالإتيان بمعجزة .. وما هي المعجزة التي يستطيع أن تقنع الناس في عصرنا الحاضر ؟ .. لقد كان المتنبئون فيما مضى لا يحتاجون إلى عناء كبير في خداع العقول .. لأن أبسط الأشياء كان يكفي أن يعد في نظر البسطاء عجيبة من العجائب .. بل إن بعض مدعى النبوة إذا أخرجوا كانوا يلجأون إلى الفكاهة للإفلات من أعواد المشائق وسيوف الجلادين .. والكتب القديمة مملوءة بنواديرهم .. فهذا رجل ادعى النبوة في أيام « هارون الرشيد » فلما مثل بين يديه وسأله عن ادعائه أجاب بكل جرأة : « نعم .. أنا نبي كريم » .. فلما سأله الرشيد عن البرهان . قال : « سل عما شئت » .. وكان يقوم حول

« هارون الرشيد » مماليك مرد الوجوه ، فقال لمدعى النبوة : « أريد أن تجعل هؤلاء المماليك المرد بلحى » . فأطرق المتنبي لحظة ثم رفع رأسه وقال : « كيف يحل لى أن أجعل هؤلاء المرد بلحى ، وأغير هذه الصورة الحسنة ؟ أنا أجعل لك أصحاب اللحى مردا فى لحظة واحدة ! » .. فضحك منه « الرشيد » وعفا عنه .. وتنبأ شخص فى عهد « المأمون » فطالبوه بمعجزة فقال : « أطرح لكم حصاة فى الماء فتذوب » .. فقالوا رضينا . فأخرج الرجل حصاة معه وطرحها فى الماء فذابت .. فقالوا له : « هذه حيلة ، ولكن نعطيك من عندنا حصاة تجعلها تذوب » . فقال : وهل « فرعون » قال لموسى : دعنى أعطك عصا من عندى تجعلها ثعبانا ؟ .. فضحك المأمون وتركه .. وإذا رجل آخر يأتى إليه ويدعى أنه « إبراهيم الخليل » فقال له المأمون : « إن إبراهيم أضرمت له نار وألقى فيها فصارت عليه بردا وسلاما ، ونحن نوقد لك نارا ونطرحك فيها ، فإن كانت عليك كما كانت عليه آمنا بك » . فقال الرجل : « أريد واحدة أخف من هذه » .. فقال له المأمون : فمعجزة « موسى » إذن : ضرب بعصاه البحر فانفلق .. وأدخل يده فى جيبه فأخرجها بيضاء .. فقال الرجل : « هذه أصعب من الأولى » فقال له المأمون : فمعجزات « عيسى » إذن : إحياء الموتي .. وهنا صاح الرجل : « قد وصلت » وأشار إلى القاضى « يحيى بن أكثم » الواقف بجوار المأمون وقال : « اضرب رقبة القاضى وأحييه لكم الساعة » فقال القاضى يحيى على الفور : « أنا أول من آمن بك وصدق .. اضرب عنق من لم يؤمن » .. فضحكوا منه .. وجاء فى زمن « المأمون » أيضا مدع للنبوة .. فقال له المأمون : « أريد منك بطيخا فى هذه الساعة » فقال المتنبي : « أمهلنى ثلاثة أيام » فقال المأمون : « أريده الآن » .. فقال الرجل : « ما أنصفتنى يا أمير المؤمنين .. إذا كان الله تعالى الذى خلق السموات والأرض فى ستة أيام ما يخرجها إلا فى ثلاثة أشهر ، أفلا تصبر أنت على ثلاثة أيام ١٩ » ...

تلك كانت مشكلة المتنبئين فى الماضى : المعجزة !.. أما اليوم فإنه لو قام رجل يدعى النبوة ، وقال للناس : انظروا !.. ثم مد يده إلى القمر فخلعه من موضعه فى (فى الوقت الضائع — ج ٢)

الفضاء ، وصره في منديله كأنه بطيخة ، وسار به متنقلا في أرجاء العالم ،
فما الذى يحدث ؟ .. يحدث أن يهب علماء الأرض لفحص هذه الظاهرة ، فيقول
الفلكيون : إن هذا العمل الخارق قد دل على أن فكرتنا القديمة عن الأجرام السماوية
كانت فكرة خاطئة ، وأن المراصد والمجاهر ما كانت تسجل وتظهر غير أوهامنا مكبرة
مضخمة ، وأن القمر في حقيقته ليس أكثر من فقاعة كبيرة من « الغاز » الخفيف ،
استطاع أن يجذبها رجل في تكوينه خاصية يجذب إليها هذا النوع من الغازات بهذه
السرعة الهائلة التى أدت إلى انكماش حجم القمر الأسمى فصار في حجم البطيخة ..
ويقول علماء الكيمياء : إن هذا الحدث يستلزم إعادة النظر في تركيب المواد التى
تتألف منها الأجسام السماوية ، فهى لا شك قابلة للتحويل السريع من الصلابة إلى
الرخاوة ومن الضخامة إلى الضآلة ، وما من شيء يمنع رجلا ذا طبيعة خاصة من أن
يجرى هذا التحويل . ويقول علماء النفس : إن الأمر لا علاقة له بالقمر ولا بغيره ، وأن
هذا الرجل يملك قوة مغنطيسية وقدرة نفسية يستطيع بهما الإيحاء على نطاق واسع ،
فهو منوم هائل للجماعات .. وهذه ظاهرة تكتشف في بعض الأشخاص من حين إلى
حين ، ولكن على نطاق ضيق ، وقدرة محدودة ، ولا شيء يمنع من ظهورها في شخص
على نحو أضخم .. وهكذا يمضى كل عالم وباحث في كل فرع يفحص ويحص
 ويفترض ويستنتج ، وتكثر المجادلات الفنية ، وتلاطم النظريات العلمية .. ولكن ما
من واحد من هؤلاء العلماء يأخذ نبوة هذا الرجل على سبيل الجد ، أو يحاول التسليم
بوجود صلة مباشرة بين هذا الرجل وبين « الله » .. لم تعد المعجزة في عصرنا الحاضر
دليلا على النبوة .. فنحن في عصر فيه المعجزات ، تتعاقب كل عام كأزياء السيدات .
فمعجزة القنبلة الذرية التى ظهرت في عام مضى أصبحت قديمة هذا العام .. لم يعد
عالمنا الحاضر يطالب النبى بمعجزة .. ولو أتى بها لأدخلها معامل البحث والتحليل ،
دون أن يعتبرها برهانا على أنه نبي مرسل من عند الله .. فلماذا إذن لا يظهر المتنبى
اليوم ، وقد أزيلت من طريقه العقبة الكبرى ؟ لا يظهر ، لأنه سيطلب بأصعب
معجزة وهى « الشريعة » .. تلك الشريعة السماوية الإنسانية فى آن .. الشريعة التى
تصلح للناس كافة .. فى آخرتهم ودنياهم .. ولا تكون تكرارا لما سبقها من شرائع ..
ولابد أن يكون الله قد أراد ذلك فعلا .. وقد أراد فعلا فى صورة نبي من البشر

ومعجزته كتاب لغوى عقلى مما يقدره البشر .. ولذلك كان خاتم النبيين .. جاء به بشرا لإعلاء شأن البشرية .. وإظهار أن المعجزة العظمى عند نضج البشرية هي « الديانة » التى يفجرها الله بنوره لتضىء للبشر طريق التقدم ..

(من فن الأدب ١٩٤٨)

بعث الحضارة

عام ١٩٤٧

قالت العصا : يبدو أن الحضارة القائمة مقبلة على زوال .. فإن صنع القنبلة الذرية سيؤدى إلى استعمارها .. فنحن اليوم فى عالم ساسته كالأطفال .. ما أن تقع فى أيديهم عليه كبريت ، حتى يسارعوا إلى إشعال ما فيها ليتقاذفوا بها .. فإذا تمت الكارثة وقذفت أمريكا على روسيا ، وقذفت روسيا على أمريكا وأوروبا هذه القتابل الهائلة فمعنى ذلك تحطيم مراكز الحضارة الغربية .. فلو فرضنا أن مصر سلمت من شر هذا الصراع المبيد ، فهل ترى فى استطاعتها أن تبعث هذه الحضارة بوسائلها الحاضرة ؟ قلت : من المؤكد أن وسائلنا الحاضرة قاصرة .. ولا تكفى لبعث حضارة علمية ضخمة .. فنحن ننسى أن ما عندنا من آلات ومعامل ومصانع إنما يأتينا من الغرب .. فلو تصورنا أن الغرب قد أبادته الحرب ، فإن علينا نحن أن نصنع كل شئ دون أى عون من الخارج .. وكم من الأعوام يلزمنا لنستطيع ذلك ؟ أكبر الظن أننا سوف نحتاج إلى ما لا يقل عن مائتين من الأعوام .. قالت العصا : ولكن هذه الحضارة التى سنتنتجها نحن بعد كل هذه الأعوام قد لا تكون هى بالذات تلك الحضارة المندثرة .. قلت : أرجو ذلك .. إني أتمنى لبلادنا حضارة روحية إلى جانب الحضارة العلمية .. إن بلادنا إن فعلت ذلك تكون .. بكل بساطة ، قد بعثت فى هذا العالم مرة أخرى فى

ثوب جديد حضارتها الأولى ومجدها القديم ..

(عصا الحكيم ١٩٤٧)

المرأة ومواهبها

عام ١٩٤٢

ما تلك اليد التي وضعت على عيني فلم أر أدب المرأة ؟. من الإسراف في القول أن أزعج أنى لم أقرأ في الصغر شعر الخنساء ، أو لم أعجب بعنان جارية الناطقي ، كما أن مكتبتى لا تخلو من مؤلفات شهيرات النساء في أزهى العصور .. ولكن ميولى قامت منذ الصغر على عمادين : النزعة الفلسفية والتركيز في الأداء .. ولهذا اتجهت إلى المؤلفات الجافة المتصلة بالفلسفة أو العلم أو المحتوى على مادة فكرية خالصة ، ثم القصص التمثيلي وهو المظهر الإنشائي الذي وجدته مبنيًا على « التركيز » . أما « الشعر » وهو فن تركيز فقد كرهني فيه سوء اختيار النماذج التي قام بها رجال تعليم يهملون « الذوق الفني » .. هذان النوعان بالذات : التفكير والتركيز لم أجد للمرأة فيهما أثرا بارزا .. فالمرأة استطاعت أن تكون ملكة وحاكمة وسياسية ومغنية وراقصة وعازفة .. كل شيء قد برزت فيه وساوت فيه الرجل .. نعم كل شيء استطاعته المرأة خلا شيئين : أن تكون « فيلسوفة » ، وأن تكون « مؤلفة تمثيلية » .. أتسرى « التفكير » و « التركيز » صفتين ناقصتين عند المرأة ؟ أما « الرواية » فالمرأة توشك أن ترفع عليها علم السيادة .. فالمرأة تمسك « بالقلم » لتصنع قصة روائية كما تمسك « بالإبرة » لتصنع ثوبا من « التريكو » . فالقصة النسوية بما فيها من تفاصيل لشئون الحياة اليومية ومن إسهاب لتفاهات الحياة المنزلية ، ومن وصف وتحليل للعواطف والإحساسات الداخلية ، ومن بسط وتجميل لكافة المشاعر الإنسانية .. كل هذا ليس في حقيقة الأمر سوى نوع من « شغل الإبرة » .. !

(تحت المصباح الأخضر ١٩٤٢)

أثر المرأة في أدبائنا

عام ١٩٤٢

هل في مقدور مؤرخ أن يدرس أثر المرأة في أدبائنا المعاصرين ؟ الويل للمؤرخ الذي يفعل ذلك !.. إنه لن يستطيع في سهولة أن ينفذ إلى حياة أدبائنا الخاصة .. فهم ما زالوا في حالة حجاب .. فنحن في موقف غريب !.. إن سفور المرأة في مصر قد سبق سفور الأديب .. ما زال أدبنا تفوح منه رائحة الحجرة المغلقة .. أما أدب الهواء الطلق فحظنا منه قليل لأن حظنا من الصراحة والصدق قليل .. لأن حظنا من الصراحة والصدق قليل .. ومع ذلك فإن هذا القليل يكفينا في الوقت الحاضر .. إن من بين أدبائنا المعاصرين من خرج سافرا من الحجرة المغلقة : فهذا « طه حسين » قد أعلن في كتاب له ذلك الإهداء الجميل : « إلى زوجتي التي جعل الله لي منها نورا بعد ظلمة وأنسا بعد وحشة .. » . وهذا الدكتور « هيكمل » قد تحدث عن سيدة أوروية قابلها في الخارج فما غادرته حتى استقر في نفسه العزم على كتابة قصة « زينب » . ثم يأتي « العقاد » بقصة « سارة » . ويحيى « المازني » فصور نساء كثيرات ولم يحدد واحدة بالذات .. أما « الزيات » فقد ذكر ملهمته التي عرفها في باريس عام ١٩٢٥ « الأنسة فرناند » .. ثم « زكي مبارك » وكتابه « ليل المريضة في العراق » . وهناك بعد ذلك حالة أدباء أثرت في تكوين ثقافتهم نساء فضليات ، دون أن يجرى على أqlامهم وصف لامرأة .. من بين هؤلاء الشيخ مصطفى عبد الرزاق .. ومنهم أيضا « أحمد أمين » وقصته عجيبة .. فإني أسأل نفسي : كيف استطاع هذا الباحث الجاد في تاريخ العقلية الإسلامية أن يكون أدبيا تنم كتاباته أحيانا عن فهم للقلب والعواطف ؟ فتحررت منه فكشف لي الأمر عن حقيقة أدهشتني .. نعم هو أيضا قد أثرت في حياته امرأة . استغفر الله ! بل امرأتان هما سيدتان إنجليزيتان : إحداهما في ذهنه وتفكيره بثقافتها

الواسعة ، والثانية في قلبه ومشاعره بجمالها ونبيلها ...! وأخيرا أقول إن المرأة التي أثرت في عمل أدبائنا المعاصرين في أغلب الأحوال امرأة أوروبية : فرنسية وإنجليزية .. ولنا أن نتساءل : أين المرأة المصرية ؟ مشغولة أين ؟ وبماذا عن صنع العقول . وقيادة القلوب . واللعب بمصائر الرجال وأقدار المشاهير ؟ ...! (تحت المصباح الأخضر)

صبراً صامت

سألزم الصمت . وبه أغلق باب أحاديث الثلاثاء . فقد بدأته بالله تعالى فقالوا ضلال . وعدت إلى نفسي فلم يكن عندي غير ذكريات .. ثم اتجهت إلى قرأتى فجاءنى من بينهم صوت صادق لكاتب كريم يقول لى بحب وتقدير : لا حاجة لى إلى القول إن توفيق الحكيم قرأنا له ونحن صغار .. فهو ليس أستاذاً لجيلنا ، ولكنه أستاذ لجيل الأساتذة الذى تعلمنا على يديه .. فلا مفر من القول إننى حزنت طوال الأيام التى مضت من الحال الذى وصل إليه .. والمشكلة أصلاً عندنا فى هذا الجزء من العالم أن الكاتب يعرف أمراً واحداً فقط وهو أن يكتب فقط .. أى أنه لا يعرف اختيار الصمت .. لست فى حاجة إلى التأكيد مرة أخرى على حزنى الخاص وأنا أقول هذا مضطراً . ولكن أكتبه لكى أطلب من توفيق الحكيم إما أن يصمت أو أن يتكلم عندما يكون لديه ما يقوله فقط .. « وها أنذا قريباً ، بإذن الله تعالى أنفذ هذه النصيحة الصادقة من محب صادق .. وأطرح هذا القلم ومتاعبه .. وأبحث عن شئ آخر أشغل وقتى به .. ومن سوء حظى أنى لم أهتم بلعبة « الطاولة » ، وهى التى اعتاد الشيوخ وأصحاب المعاشات أن يشغلوا فراغهم بها على المقاهى .. وبهذه المناسبة أنصح المسنين أن يفكروا فى مستقبلهم هذا غير السعيد وأن يستعدوا له بهواية تشغل فراغهم إلى أن يحين موعد الرحيل الأخير .. والحمد لله أن جاءتنى نصيحة من محب آخر يقيم فى البلد الشقيق « السودان » .. حملها إلى نخبة من الشباب السودانى المثقف ، وقد علموا أن نومى الآن قليل ، وأنى أستيقظ فى الثالثة صباحاً ولا أدرى ما أصنع حتى يطلع الفجر على الأقل .. خصوصاً الآن وقد استبعدت فكرة الكتابة .. وكانت النصيحة من شقيقنا السودانى هى أن ألجأ إلى صلاة الثلث الأخير من الليل .. وهى سنة لا يتبعها الكثيرون من المؤمنين .. وقد بدأت القيام بها .. ولكن لأن الساقين عندي تحت العلاج فإنى لا أحسن السجود .. وإذا سجدت فإنى لا أستطيع النهوض .. وطيبى

المؤمن الدكتور أحمد عبد العزيز إسماعيل إذا علم بذلك سوف يؤكد أن هذه الصلاة مفيدة للعلاج .. ولكنى تذكرت أن الدين يسر لا عسر .. وأن في إمكاني الصلاة وأنا جالس ، وأن الوضوء في برد الليل إذا أضرتني فأني أستطيع أن ألتجأ إلى التيمم .. والله أسأل أن يهديني هو إلى الصواب ولا يلجئني إلى استشارة رجال الدين ، ولن أجد عندهم إلا التشدد والتخويف بجهنم ونحن على أبواب الصيف والعياذ بالله ! .. وحسبى رسول الله ﷺ إذ قال « خير دينكم أيسره » قالها ثلاثا ..

مخاوف السودان

زوارى من الشباب المتقف السوداني قد أشعروني بكل رفق وأدب ، مع ترحيبهم بالتكامل بين البلدين الشقيقين ، أن فتح الباب قد يسمح بتسرب بعض مظاهر ما نشكو منه نحن أنفسنا ، وخاصة في محيط مثقفينا ، من التدهور الملحوظ في إدراكهم وفي حياتنا الاجتماعية والعقلية والعقائدية .. فهم في السودان ما زالوا محتفظين بقدر كبير من حسن الفهم والطهارة والصدق والصراحة ووضوح النظرة إلى مراحل تاريخ مصر الذى قامت فيه النهضة وحركات التجديد .. فإذا هم أمام مصر أخرى تسود فيها الجهالة والغوغائية والسطحية والمادية (الدولار والدينارية والأرنية) يجرى خلفها الكبار والصغار داخل البلاد وخارجها ، والأمية الهجائية والفكرية .. والدروس الخصوصية والمدارس والجامعات وعلومها التلقينية البيغوية ، وتقديس المجاميع الدراسية بغير تنمية فكرية .. وأماكن لها من علنية وسرية .. وأحزاب سياسية تشيعية .. أو ببرامج تنشئها قرارات حكومية ، وفنون تهريجية يطلق أصحابها على أنفسهم وصف رجال الفكر .. ورجال فكر بنصف فكر . لا يقرأون . وإذا قرأوا لا يفهمون . ومنهم من يريد للكاتب أن يصمت .. ومنهم من يرى رفاعة الطهطاوى ومحمد عبده وأمثالهم مجرد أناس سافروا وانبهروا بحضارة الغرب ، ويريدون منهم أن يضعوا على أعينهم غشاوة حتى لا يروا التقدم وينبهروا به .. ونسوا أن الحضارة العربية التى كانت في عهد الرشيد والمأمون ازدهرت بالنظر إلى حضارات الأمم المجاورة ،

وشجعوا حركات الترجمة لمؤلفات الهند والفرس والإغريق . وأنكروا حديث نبينا ﷺ : « اطلبوا العلم ولو في الصين » وقالوا عنه إنه حديث موضوع .. ما الذى حدث في مصر ؟ ليس فيها شخص واحد : لا في الدولة ، ولا في الأحزاب ولا في الجامعة ولا حتى في الأزهر يستطيع أن يقوم بنهضة مثل النهضات التى قامت في تاريخ مصر .. كلهم تجمدوا في الحركة والفكر .. لأنهم كلهم من مبدأ « وأنا مالى » ويجرون في مجرى واحد : الجيب ! ما من واحد منهم يرى شيئا آخر .. أما التكامل مع السودان فقد قلت : لا تخشوا منه شيئا .. لأنه تكامل اقتصادى .. غذائى في المقام الأول .. مكانه البطن أيضا . لأنه المكان الوحيد الذى تعرفه الآن مصر كلها .. مصر دولة وشعبا .. مكان واحد يشغل تفكير وعمل كل أهل مصر من حكام ومحكومين : ليس هذا المكان : البطن .. فاطمأن زوارى من شباب السودان المثقف .. لأن خوفهم هو من تسرب أفكارنا . فقلت لهم : اطمئنوا .. لم يعد لدينا أفكار ولا مفكرون .. لأن الفكر والمفكرين أسياء لا تنبت إلا في جو الحرية .. والحرية تقوم في ديموقراطية حقيقية .. وهى توجد عندما تسمع عندنا عبارة « تكلم ونحن نرد عليك ، اكتب ونحن نكتب » .. وتختفى صيحة « اسكت .. اصمت .. احرص » .. وهذا ليس موجودا عندنا الآن .. فأشاروا إلى الحركات الإرهابية فقلت إنها نتيجة الظلام .. فإذا ظهر الوضوح بطلوع نهار الآراء الحرة ، وطبق ما جاء به الإسلام الحق عن منع العنف والإرهاب وقوله تعالى ﴿ وجادلهم بالتى هى أحسن ﴾ .. فهذا الجدل وحده يلغى المبرر لوجود الإرهاب ، فإن وضع كرامة على القم يودى إلى التحرك باليد .. وبهذه المناسبة فقد كنت دائما أنصح بعودة « حزب الوفد » وجريدته .. لأن له مبادئ ثابتة من ثورة ١٩١٩ — لأن كل ثورات مصر ونهضاتها يجب أن تكون ممثلة في تاريخ مصر .. أما عمليات البتر التى قطعت أوصال تاريخنا فقد جعلت من مصر مجرد أشلاء .. وأملى فيكم أنتم يا شباب السودان بطهارتكم ، وأنتم تتأملون حالنا المؤسف — عن بعد — أن تساعدونا أنتم في تغيير ما بأنفسنا ..

ما هي القضية

ومما أعجبت له من أمر زوارى السودانيين أنهم فهموا — وهم يتابعون المناقشة التي قامت هنا بينى وبين رجال الدين — أنها قضية فكرية . واهتموا بها على هذا الأساس ، وعجبوا لأن أهل الفكر في مصر لم يفهموا ذلك .. فقلت لهم مبسطا : وما هي القضية ؟ إني كدت أنسى ذلك . لأنى أعيش في جو الظلام الفكرى وعدم المبالاة ، واهتمام الأقلام هنا بالكتابة الروتينية الصحفية والمسلسلات التليفزيونية .. أما أهل الفكر في مصر فدلوني عليهم من فضلكم .. لقد كان أولئك الذين تتكلمون عنهم موجودين فعلا قديما ، يقرؤون ويفهمون ويثيرون القضايا .. أما اليوم فلا يوجد في مصر رجال فكر ولا قضايا فكر .. أجابوا : وما الذى جاء بنا إليك اليوم ؟ أليست قضية فكرية سمعنا ضجتها في السودان ؟ وهى أن رجل فكر مثلك أراد أن يحدث الله بفكره وأسلوبه ، فثار عليه رجال الدين واهتموه بالضلال والخروج على الدين ، وأغروا به الغوغاء .. وتساءل الناس في مصر وخارجها : هل توفيق الحكيم خرج حقا على الدين وتطاول على مقام الله تعالى ؟ .. وحتى الآن لم يبت في القضية .. ولم يعرف الناس هل التهمة صحيحة أو هى من المبالغات المقصود بها التشويه أو التخويف أو طرد مفكر من الاقتراب من مجال اعتبروه من اختصاصهم وحدهم ؟ .. فكان رد الصحافة عليهم أن هذا موضوع يخص هذا الكاتب وحده وأنه سكت وتنازل عنه .. ويظهر أنه رضى بالهزيمة .. فعجب السودانيون وقالوا لهم : هذه ليست قضيتهم وحده وهزيمته فيها هى هزيمة الفكر كله .. وإذا سكت هو في سنة هذه فعليكم أنتم أن تواصلوا المسيرة وأن تعرفوا النتيجة : هل هى في سكوت الأديب والمفكر وابتعاده عن هذا الموضوع الشائك وتركه لرجال الدين وحدهم وفي حراستهم ، دون مناقشة ، أو أن يلفتوا نظره فقط بالحسنى إلى ما وجدوا فيه مساسا بالعقيدة ، دون اتهامه بالضلال ليهاجمه في سمعته من قرأ ومن لم يقرأ من الدهماء ؟ .. وكيف يمنع مفكر من أن يفكر في الدين .. وجاء في الإسلام قوله صلوات الله عليه : « لا عبادة كتفكر » و « تفكر ساعة خير من

عبادة سنة .. ولم يخص بالتفكير رجال الدين وحدهم ؟ .. وما يخشى منه هو أن يصبح ما يجول في ذهن البعض من أن رجال الدين يريدون أن يضخموا نفوذهم إلى أن يصبح سلطة تهدد إرادة الدولة .. وهذا أيضا ما لم يكن ليخفى على فطنة السودانيين ، وما يمكن أن يكون قد أثار قلقهم ..

الحكم والفكر

أريد أن أدخل الاطمئنان إلى قلوب أشقائنا السودانيين ، حتى لا ينزعجوا طويلا ، وهم يرون الأقلام والأفكار في مصر بهذا التبلد والتجمد واللامبالاة والانصراف إلى التفكير في الأجور والمرقات .. فلتذكر قضية من قضايا الحكم والفكر في مصر .. كان من أطرافها الملك والإنجليز والأزهر والمفكرون .. تلك هي قضية كتاب « الإسلام وأصول الحكم » للشيخ على عبد الرازق .. نشأت هذه القضية بعد إلغاء الخلافة العثمانية على يد مصطفى كمال .. فقد طمع ملوك العرب الخاضعين لإنجلترا في أن يرثواهم هذه الخلافة ويقيموها عندهم .. ومن بين هؤلاء الملوك ملك مصر « أحمد فؤاد » الذي بذل الجهود والأموال في هذا السبيل ، وأصدر مجلة اسمها « الخلافة » جعل العالم الإسلامي الشهير « رشيد رضا » صاحب المنار هو المشرف عليها .. في هذا الوقت ١٩٢٥ أصدر « على عبد الرازق » كتابه « الإسلام وأصول الحكم » يعارض فيه فكرة الخلافة ، لأنها إذا قامت سوف تكون خلافة خاضعة للإنجليز .. فكان كتابه إنكارا للخلافة من أصلها .. وأنها ليست من أصل الإسلام .. وغضب لذلك بالطبع الملك فؤاد والإنجليز وعلماء الأزهر .. واتصل الملك بهيئة كبار العلماء في الأزهر وخرضهم على محاكمة الشيخ على عبد الرازق وهو عالم من علماء الأزهر وقاض بالمحاكم الشرعية المصرية .. واجتمعت هيئة كبار العلماء ورئيسها وقتئذ « الشيخ أبو الفضل الجيزاوي » .. ودخل عليهم الشيخ على عبد الرازق قائلا : « السلام عليكم » فلم يردوا عليه السلام .. بل أمره شيخ الأزهر بالجلوس فجلس .. وقال له شيخ الأزهر وهو يشير إلى كتابه : « إن هذا الكتاب كله ضلال وخطأ » .

ورد على عبد الرازق بقوله : « إن كل ما جاء به الإسلام من عقائد ومعاملات وآداب وعقوبات فإنما هو شرع ديني خالص لله تعالى ولمصلحة البشر الدينية لا غير .. وإن الأغراض الدنيوية قد جعل الله الناس أحرارا في تدبيرها ، بدليل قول الرسول ﷺ « أنتم أدرى بأمور دنياكم » ثم قال : إنه لا شك في أن القضاء بمعنى الحكم في المنازعات وفضها كان موجودا في زمن النبي ، ولكن جعل القضاء وظيفة معينة من وظائف الحكم ، واتخاذها مقاما ذا أنظمة معينة فذلك هو الذي نعتقد — كما قررنا في صفحة ١٠٣ من الكتاب — أنه من الخطط السياسية الصرفة التي لا شأن للدين بها. فهو لم يعرفها ولم ينكرها ولا أمر بها ولا نهى عنها، وإنما تركها لنا لنتراجع فيها إلى أحكام العقل. وقد ذكر ابن حنبل في أظهر رواياته أن القضاء ليس من فروض الكفايات.. ثم ذكر أنه قرر في صفحة ٩٠ من كتابه : أن زعامة النبي ﷺ كانت زعامة دينية ، وأردنا بكونها دينية أنها جاءت عن طريق الرسالة لا غير . فذلك صريح في أن الزعامة الدينية معناها الزعامة التي تستند إلى الرسالة والوحي ، وتقابلها بهذا المعنى الزعامة اللادينية ، فهي التي لا تستند إلى وحي ولا رسالة . وبهذا لا تكون بعد النبي زعامة دينية بهذا المعنى .. وإنما توجد بعده زعامة مدنية أو سياسية ، وهي زعامة الحكومة والسلطان .. » وفي حديث للنبي صلوات الله عليه : « الخلافة بعدى ثلاثون سنة ثم تكون ملكا » . وبهذا انتهى التحقيق مع الشيخ « على عبد الرازق » وقد حكم عليه بما يأتي : « حكمنا نحن شيخ الجامع الأزهر بإجماع أربعة وعشرين معانا من هيئة كبار العلماء ، بإخراج الشيخ « على عبد الرازق » أحد علماء الأزهر ، والقاضي الشرعي بمحكمة المنصورة الشرعية ومؤلف كتاب « الإسلام وأصول الحكم » من زمرة العلماء » .. تلك باختصار قضية الخلافة والإسلام وأصول الحكم .

المهم عندي : لماذا بدل المحاكمة والعنف لا يؤخذ عند اختلاف الرأي بما قاله الله تعالى في كتابه الكريم : ﴿ وجادلهم بالتي هي أحسن ﴾ . على أن ذلك الحكم ضد « الشيخ على عبد الرازق » ، وما أشيع من أنه صدر عن تيار الرجعية والتجمد ، قد ألغى وأعيدت العالمية إليه في عهد شيخ الأزهر المعروف بأنه نصير حرية الرأي « الشيخ مصطفى المراغي » مع العلماء المستنيرين الذين أرادوا إنقاذ سمعة الأزهر الشريف من

آثار الحكم السابق ..

نظام الحكم

في تاريخ البشرية لم يقيم نظام الحكم إلا على قوتين : قوة الجيش أو قوة الدين .. إلى أن جاءت العصور الحديثة فظهرت قوة ثالثة هي قوة الشعب .. وتمثل هذه القوة الثالثة فيما سمي بالديموقراطية .. ومنذ ثورة ١٩١٩ عرفت مصر هذه القوة الثالثة، ومارست « الديمقراطية » بصفة رسمية وتأسست المجالس النيابية التي ينبع منها رجال الحكم .. طبقا للدستور الذي كان هو أمل الشعب المصرى حتى قبل ثورة ١٩١٩ .. وكان شباب المدارس العليا إذا تصادف مرور حاكم البلاد « الخديوى » يهتفون صائحين به « الدستور يا أفندينا » .. وبالطبع كان الدستور هو ما يقلق الحكام ، لأنه حق ينتزعه الشعب من سلطة الحاكم .. ولذلك كانت الحياة الدستورية بعد ثورة ١٩١٩ مما لا يرتاح لها الملك .. وكذلك المحتل الإنجليزي .. ولذلك لم تكن الديمقراطية في مصر تسلم من تدخل وإفساد الملك والإنجليز .. حتى أصبحت الديمقراطية عندنا مصدرا للخصومات والمنازعات الحزبية والمطامع الشخصية للوصول إلى كراسى الحكم ، إلى حد لم أجد أنا فيها غير الأداة المعرقلة لكل تقدم في البلاد .. ووقفت منها موقف الخصومة ، وصدر كتابى « شجرة الحكم » عام ١٩٣٨ ، وذكرت فيه أن النظام البرلماني كما يطبق في مصر هو الأداة الصالحة لتخريج الحكام غير الصالحين .. وأن الأمل في الشباب لإصلاح الفساد وإحداث « الثورة المباركة » بهذا الاسم والنص ، وجاءت ثورة ١٩٥٢ وسميت بهذا الاسم نفسه . ورحبت أنا بها بالطبع .. وألغت الدستور .. وصدت لذلك الكثيرون .. إلا أنا الذي قلت : لا تهمنى الدساتير .. المهم عندى الأشخاص المخلصون .. وجاء شباب الثورة في أول الأمر بما أدهشنا بإخلاصه للوطن وسرعة إنجازاته .. وشيئا فشيئا وجدنا « الثورة المباركة » تتحول إلى نظام بوليسى دكتاتورى .. يعمل بأسلوب لا يقوم على أساس المناقشة والجدل .. بل الأوامر والقرارات العليا .. ولاحظت أن مصر بعد ثورة

١٩١٩ في حضارتها وفكرها وفنها واقتصادها هي من صنع مصر .. أما بعد ثورة ١٩٥٢ فإن مصر هي من صنع الدولة .. ثم توالى في مصر المغامرات السياسية والهزائم العسكرية والمواقف الانفعالية التي خسرت بها مصر الكثير .. مما جعلنى أتأمل ما حدث وأقول : إن مصر قد عرفت نظامين : النظام الديمقراطي على نحو ما ، (ومن عيوبه التى وقفت ضده من أجلها) عيوبه التى لمسنها وتقدناها : التطاحن الحزبى والجدل العقيم الذى يعرقل المشروعات النافعة ويبطئ تنفيذها .. ومن مزاياه شئ من حرية القول والعمل والرأى والوعى المستقل ، مع عدم المغامرات والانفعالات والاندفاعات الخطرة .. ثم جاء النظام المبني على الحكم المطلق بإرادة فرد ، من مزاياه التنفيذ السريع لما يراه من مشروعات نافعة وقوانين ، ومن عيوبه القرارات المتعجلة أو المفاجئة المبنية على الانفعالات ، والمغامرات التى قد تورط الأمة فى ساعة واحدة وتوردها موارد الهلاك .. وهذا كتبته فى كتابى « عودة الوعى » .. ولكن عقلية الأمة كانت قد تشكلت بحكم غياب حرية المناقشة والجدل ، فأصبحت تتحرك بالإثارة والانفعال والشحن . والدولة اعتمدت على وسائل الإعلام وأتقنت طرق شحن الجماهير ، وإطلاقها فى الاتجاه الذى تريده الدولة مع أو ضد أى رأى أو كتاب أو شخص .. وهكذا لم أجد أحداً أو قلما يناقش أو يحلل .. بل وجدت الصياح والشتم من كل جانب .. فلقد تكونت فى العقلية المصرية عاهة أرجو أن لا تكون مستديمة : هى ضمور عضلة التفكير والتحليل وحل محلها عضلة لا تشعر بالحب أو الكره ، ولا ترى غير لونين « الأبيض والأسود » .. وبذلك ظهر نتيجة الشعور الواحد الانفعال بالحب والكره موقف التعصب ثم الإرهاب والعنف .. وهنا خطر غياب المناقشة والتفكير والتحليل .. وهو ما يقتضى ظهور الحرية الحقيقية .. وبمعنى آخر إرساء قواعد « الديمقراطية الصحيحة » وليست المفتعلة أو المزيفة أو الناقصة ، أو التى تستخدم لأغراض دعائية ومظهرية .. الحل هو فى ديمقراطية حقيقية ، تطلب لمزاياها وأهمها الآن هو قدرتها على إبعاد الخطر المنتظر المائل فى التعصب الأعمى والتجمد الفكرى الذى يصاحبه الانفعال المؤدى إلى العنف والإرهاب .. ثم النتيجة بعد ذلك هى عودة الديكتاتورية الرجعية ..

الديمقراطية

وهذا هو سبب ترحيبي بعودة الديمقراطية في مقالى الذى نشرته بعنوان « تهنئة للديموقراطية » . جاء فيه : « إن قرار الموافقة على تأسيس حزب الوفد الجديد قد أحدث في الشعب هزة فرح واستبشار .. لأن الشعب المصرى بفطرته الواعية النابعة من إدراك سليم صقلته خبرة تاريخ قديم وتجارب آلاف السنين ، قد عرف أن شيئاً جديداً قد حدث . إنه عودة الروح إلى حياة نياية ولدت من ثورة شعبية قامت منذ أكثر من ستين عاماً على الرغم من سلطان ملكى واحتلال بريطانى .. وكانت إرادة الشعب هى التى تقرر . واختياره هو الذى يحقق . وصوته هو الذى يعلو على كل صوت .. عندئذ تفاءلت البلاد ، وأيقنت أن الديمقراطية الكاملة بكل أركانها سوف تصبح حقيقة واقعة .. فعلى الحزب الجديد القديم أن يعمل على دعم هذه الديمقراطية بإرساء تقاليدھا السليمة بالمعايشة التزيهة مع الأحزاب الأخرى ، فلا يخاصمھا فما هو حق ، ولا يهادنھا فيما هو باطل ، وأن يدرس مشكلات الشعب بعمق وخبرة ، وأن لا يعارض لمجرد المعارضة ، وألا يكون هدفه الوصول فقط إلى الكراسى بل ينشئ هو نفسه « حكومة ظل » تبحث الحلول كما لو كانت فى السلطة .. وأن يكون هدفه الأكبر هو النهضة بالبلاد فى كل مرافقھا ونواحيھا .. وأن يعمل جادا على إعادة بناء المواطن على أساس تأكيد شعوره بالوحدة الوطنية ، التى كانت من أهم إنجازات الوفد فى عهده الأول .. إذا استطاع حزب الوفد الجديد الذى كانت ولادته الأولى فى أحضان الحرية أن يسهم بسلوكه الديموقراطى الصحيح فى بناء المجتمع الحر الجديد ، فإنه سينشط الأحزاب الأخرى فى ميدان التنافس الشريف ، حيث يعمل الجميع ، كل بطريقة ووسائله على إنهاء البلاد من محوھا الفكرى ..

الحمول الفكرى

وهذا الحمول الفكرى « وخاصة السياسى » أشد أنواع الحمول خطرا .. لأنه ليس من النوع الهادئ الذى قد يدل عليه مظهره .. بل هو حمول الرماد الذى يخفى تحته نارا ، ويكفى أن يقترب منه نافخ دجال حتى يشعل منه نارا هوجاء لا تدرى ما ستحدثه من دمار .. وإذا كان لهذا الحمول الفكرى فكر فهو ما يمكن تسميته « الفكر الغوغائى » وهو نقيض « الفكر الديمقراطى » .. وهناك فرق كبير بينهما : فالفكر الغوغائى هبوب ترائى .. غبارى كريخ الخماسين يملأ الجو ويعمى البصر ، ويحول دون فتح عيون التفكير .. فى حين أن « الفكر الديمقراطى » ريح صافية تسمح بالجدل والأخذ والرد وتنتج رأيا .. وإذا اشتدت الريح أحيانا وحدث تصادم فى الآراء فإن ذلك يكون كاحتكاك حجر بحجر ينتج ضوءا ينير جوانب المسألة .. أما ذلك الذى عندنا اليوم فهى رياح الخماسين الفكرية ، تهب فيمتلىء الجو بالغبار الذى يعمى البصر .. ولذلك كانت تحتنا بعودة الأحزاب ومعها الوفد تمهيدا لديموقراطية صحيحة تسير بنا نحو التقدم والازدهار فى ظل وحدة وطنية عرفتها البلاد فى أزهى مراحل تاريخها .. ولكن مع الأسف .. سرعان ما تدخلت العناصر المغرضة والنوايا السيئة فأفسدت الجو ، وغيرت النفوس وأثارت الانفعالات ، فأطيح بذلك كله فى زمن قصير .. وعندنا مصيبة أخرى يجب أن نحسب لها الحساب .. مصيبة اسمها « الانفعال » .. هذا الانفعال هو من أسباب البلاء عند الزعماء .. وفى تاريخنا الحديث أمثلة : فإذا بحثنا عن أسباب هزيمة ١٩٦٧ لوجدنا من بينها انفعالا نفسيا عند الزعيم .. كذلك أحداث الاعتقالات بالجملة وما أصاب حزب الوفد والبابا شنودة .. كل ذلك نتيجة نوبة انفعال أثاره فى نفس الزعيم أشخاص بكلام وتقارير دفعته إلى اتخاذ القرارات السريعة والمواقف الخطيرة .. وذلك لا يحدث إلا عندما يكون الزعيم هو وحده صاحب القرار ..

المستشار « الثلاجة »

ولذلك اسمحوالى بتقديم اقتراح : أن يعين لكل زعيم من هذا القبيل مستشار : يسمى « المستشار الثلاجة » ، مهمته كلما رأى الزعيم قد تعرض لنوبة انفعال أن يبادر ويسعفه ، قبل أن يتخذ أى قرار ، بإدخاله « الثلاجة » لتبريد أعصابه .. ولم يصل تصورى بعد إلى وصف هذه الثلاجة ولا المستشار الذى يعين لها .. ولى فى هذا اللون من الانفعال السيئ تجربة شخصية : فقد كنت قد نشرت كتابا .. وكنا فى عصر النشاط الأدبى والفكرى : فما يصدر لأحد منا كتاب حتى يتناوله الأدباء والنقاد والزملاء بالتنويه .. ولذلك ما إن صدر كتابى حتى تناوله طه حسين بالثناء .. وأعجبني مقاله وشكرته فى نفسى وعندئذ دخل مكتبى صديق بادرني بقوله : هل قرأت مقال طه حسين عن كتابك ؟ ولم يتح لى الإجابة أو الحديث فى الأمر . وبادر يقول إن طه حسين خبيث وأن بين سطوره سموما خفية .. وكان الجو حارا والأعصاب متوترة فأثار انفعالى ، وأمسكت فى الحال بالقلم وأرسلت إلى طه حسين خطابا فظا ، ما كاد يقرؤه حتى صاح فيمن حوله : سبحان الله .. لقد نشرت مقالا عن الكتاب الذى صدر لتوفيق الحكيم ليس فيه غير الإعجاب ، فرد على يشتمنى ... وصارت قطيعة بيننا (مؤقتة) .. وعدت إلى مقاله أقرؤه مرة أخرى فى هدوء ، فلم أجد فيه ما يستحق غير الشكر .. كيف استطاع إذن هذا الصديق رحمة الله عليه أن يغير شعورى ويثيرنى ضده ؟! .. ورأيت بعدئذ أن مثل هذا يحدث كثيرا فى مجال السياسة ..

مريم

وأخيرا .. قرأت فى سورة آل عمران قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ ﴾ .. صدق الله العظيم .. ثم قرأت فى القرطبي « ... فظاهر القرآن والأحاديث يقتضى أن مريم أفضل من جميع نساء (فى الوقت الضائع — ج ٢)

العالم ، من حواء إلى آخر امرأة تقوم عليها الساعة ، فإن الملائكة قد بلغت الوحي عن الله عز وجل بالتكليف والإخبار والبشارة كما بلغت سائر الأنبياء ، فهي إذن نبيه .. وكذلك رواه موسى بن عقبة عن كريب عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : « سيدة نساء العالمين مريم ثم فاطمة ثم خديجة ثم آسية » . وهذا حديث حسن . : وقد خص الله مريم بما لم يؤته أحدا من النساء ، وذلك أن روح القدس كلمها وظهر لها ونفخ في درعها ودنا منها للنفخة ، فليس هذا لأحد من النساء ، ولذلك سماها الله في تنزيله « صديقة » فقال : ﴿ وأمه صديقة ﴾ .. هذا نص ما جاء في القرطبي .. وأنا الآن أكتب هذا لتعرف حفيدتي الصغيرة « مريم » مناقب من تسمت باسمها ، ولتخبرها أمها بنتي « زينب » ما يحمله هذا الاسم من فضائل ذكرها الله تعالى في قرآنه الكريم بقوله سبحانه : ﴿ اصطفاك على نساء العالمين ﴾ .

* * *

حديث الإفك

كانت « عائشة » زوج النبي صلوات الله عليه على فراش المرض في مسكنها .. وإلى جوارها أمها « زينب أم رومان » .. فقالت لأمها : « يا أمي ! أتذكرين أني كنت إذا اشتكيت رحمتي رسول الله ولطف بي ؟ .. إنه لم يفعل ذلك بي في شكواي هذه ! .. » .

وحدث أن دخل النبي وخرج دون أن ينظر إلى عائشة .. فقالت : « أرايت جفائه لي ؟ .. لقد جاء وانصرف ، دون أن يخاطبني بكلام .. إني أرى في وجهه شيئا ما كنت أراه من قبل ! .. » وكانت إلى جوارها امرأة هي « أم مسطح » قالت وكأنها تخاطب نفسها : « تعس مسطح ! .. » فقالت لها عائشة : « لماذا تقولين ذلك له ؟ .. بس ما قلت لرجل من المهاجرين ، فقد شهد بدرا ... » فقالت أم مسطح : « أوتجهلين ما يتحدث به الناس ؟ أنت وصفوان ! .. ليلة عاد العسكر من غزوة بني المصطلق ، قد رأيكم « مسطح » منفردين وأنت على بعير صفوان ، وحدث به الناس .. ولا أرى إلا أن النبي قد علم به ! .. » واستوت عائشة على فراشها قائمة تصيح : « أنا وصفوان ؟ أنا ؟ أنا وصفوان ؟ » ونظرت إلى أمها : « يغفر الله لك ! تحدث الناس بما تحدثوا به ولا تذكرين لي من ذلك شيئا ! » فقالت أمها وهي مطرقة :

— أي بنية ، خفضي عليك الشأن ، فوالله لقلما كانت امرأة حسناء عند رجل يحبها لها ضرائر إلا كثرن وكثر الناس عليها ! .. وتردد عائشة باكية : « أنا وصفوان » !؟ ومسطح قد رآنا !؟ فتقول أم مسطح :

— هوني عليك .. إنه حديث إفك ! .

وتقول عائشة وهي تبكي : إني .. إني حقا كنت على بعير صفوان .. فالتفت إليها الجميع : « حقا !؟ أنت ؟ » .

فقالت عائشة وهي تكفكف دموعها : « أقص الخبر .. لما كانت غزوة بني المصطلق اقترح رسول الله بين نسائه كما يصنع — فخرج سهمي عليهن ، فخرج بي .

فلما فرغ من سفره ذلك ، وجه قافلا حتى إذا كان قريبا من المدينة نزل منزلا فبات به بعض الليل ، ثم أذن في الناس بالرحيل فارتحل الناس ، وخرجت لبعض حاجتى وفى عنقى عقد .. فلما فرغت انسل من عنقى ولا أدرى ، فلما رجعت إلى الرحل ، ذهبت أتمسه فى عنقى فلم أجده .. وقد أخذ الناس فى الرحيل ، فرجعت إلى مكانى الذى ذهبت إليه أتمسه حتى وجدته .. وجاء القوم الذين كانوا يرحلون لى بعيرى ، فأخذوا اليهودج وهم يظنون أنى فيه .. فانطلقوا به .. فتلففت بجلبابى ثم اضطجعت فى مكانى .. فوالله إنى لمضطجعة إذ مر بى « صفوان السلمى » وقد كان تخلف عن العسكر لبعض حاجته ، فرأى سوادى فأقبل حتى وقف على ، فلما رآنى قال : « إنا لله وإنا إليه راجعون ، ظعينة رسول الله ! .. » ما خلفك يرحمك الله ! .. ثم قرب بعيره ، فركبت . وأخذ برأس البعير ، فانطلق سريعا يطلب الناس .. فوالله ما أدر كنا الناس .. فقال أهل الإفك ما قالوا .. ووالله ما أعلم بشىء من ذلك إلا منك يا أم مسطح الآن .. والآن أدركت علة ما كنت أنكر من رسول الله .. إنى لأدرك الساعة ما به ..

(من كتاب « محمد » ١٩٣٦)

المرأة الجديدة

عام ١٩٢٣

مسرحيتى « المرأة الجديدة » التى كتبته فى سنة ١٩٢٣ . ومثلتها جوقبة « عكاشة » سنة ١٩٢٦ وكنت قد غادرت مصر ولم أشاهد تمثيلها حتى اليوم . وكنت فى فرنسا أقرأ أخبارها من الصحف التى تصلنى من مصر .. وعندما نشرت لى بعد ذلك مجموعة من مسرحيات فيما سسمى « المسرح المتنوع » كنت قد عثرت على نسخة خطية لهذه المسرحية وهى نسخة « الملحن » .. وقد كتبت لها مقدمة .. جاء فيها : « ... ولم أر بأسا فى نشرها اليوم ، لما أوحته إلى وما قد توحىه إلى قارىء هذا

الجيل من ملاحظات .. منها موقفي من حركة « سفور المرأة » التي نشطت في ذلك الحين عقب ثورة ١٩١٩ على وجه الخصوص .. وخروج النساء بالمظاهرات أمامنا متحجبات بالبرقع و « الياشمك » .. ذلك الموقف عندى الذى ينم عن خوف وقلق .. وكان مصدر الخوف والقلق كما عبرت عنه المسرحية راجعا إلى ما كنا نتوقعه من أثر السفور على فكرة الزواج نفسها .. وأثر الاختلاط السافر في الزوجية .. وقد كان القلق والخوف من أن يؤدي الاختلاط إلى الانصراف عن الارتباط الزوجي ، ما دامت المرأة قد خرجت لهم سافرة .. وأن يجد الجميع في تقارب الجنسين وسهولة الاتصال بينهما ما يطفىء رغبة التلاقى عن طريق الزواج .. كما كان الخوف والقلق من السفور في الأسر ، واختلاط زوج هذه بزوجة ذاك أو غيرها ، أن يؤدي الأمر إلى انهيار الحياة الزوجية والأسرية .. وما من شك عند قارىء الحيل الحاضر في أن بعض تلك المخاوف لم يكن لها محل .. فالأيام قد أثبتت أن سفور المرأة لم يؤثر في فكرة الزواج بصورة تدعو إلى الانزعاج .. أما تزعزع الحياة الزوجية والأسرية في المجتمع الحديث من أثر الاختلاط ، فقد يكون موضع اعتبار .. وإنى أترك تقدير ذلك ودرجته للمعنيين بالبحث والدرس والإحصاء الاجتماعى في مجتمعنا المعاصر .. على أن من الإنصاف لحركة المرأة الجديدة في ماضيها وحاضرها — وموقفي منها الذى أغضب زعيمتها « هدى شعراوى » — أن نعترف بأن الكثير من مخاوف اللحظة قد لا تحققها ظروف الغد .. فالتندر على مطاعم المرأة السياسية اليوم — وأنا أكتب هذا الكلام — في الأربعينات أى بعد مرور نحو ربع قرن من كتابة مسرحيتى « المرأة الجديدة » .. قد يكون تجنبيا عندما نرى في المستقبل أن أوضاع الحياة الحديثة قد استقرت دون أن يقع مما توهمنا شيء ذو خطر . لقد تعودنا اليوم منظر المحامية والصحفية والموظفة والأستاذة الجامعية .. وما من شيء يمنع غدا من تعودنا منظر النائبة والوزيرة .. كثير من أفكارنا الحاضرة سيبدو غريبا في المجتمع الذى سيولد بعد ثلاثين سنة ! ..

وأنا على استعداد دائم لإعادة النظر في أفكارى ومواقفى . لأن طبيعتى التحليل وليس التجميد . ولست أعرف الحب المطلق ولا العداوة المطلقة . وفي المرأة والسياسة قد أحب الشخص وأعادى مبادئه .. ولى أصدقاء كثيرون أحبهم وهم من أحزاب

ومبادئ^٤ لا يمكن أن أعتنقها أو أنحاز إليها .. والمرأة أيضا أحبها دائما ولكنى أعاديتها لمبادئ^٥ عندها لا يمكن أن أوافق عليها .. فمن رآنى محبا أو صديقا لشخص فلا يخطئ^٦ ويظن أنى موافق على أفكاره ومواقفه .. لذلك لست أعرف المواقف الثابتة .. فى الخصومة الراسخة والعداوة الدائمة .. لأن من طبيعتى التحليل والمراجعة .. ولهذا لم أنضم فى حياتى إلى حزب ، سياسى أو اجتماعى . لأن مبادئ^٧ الحزب ومشاعره ثابتة تسمح فقط بالانتماء ..

تأتى بعد ذلك ملاحظة تتعلق بالأدب .. فمراجعتى لهذه المسرحية نهتنى إلى أن قضايا العصر ومشكلات المجتمع كانت منبع وحى لنا فى أوائل العشرينات وقبلها .. فالقول أحيانا بأن أدبنا الحديث لائذ بأبراج العزلة ، مقطوع الصلة بالمجتمع وأفكاره واتجاهاته هو قول مجحف فى الغالب .. وربما كان السبب فيه عدم التفريق بين أدب الدرس والبحث وأدب الخلق والتصوير .. فالأدب المرموق المحترم فى بلادنا العربية حتى مطلع هذا الجيل ، كان أدب البحث والدرس ، وهو بطبيعته يدعو أدباءه إلى أن يعكفوا على النصوص القديمة واللغة الفصيحة ، وهم بغيرهم فى هذه النصوص والمتون تنقطع بالضرورة صلتهم بما حولهم من شئون المجتمع والناس ولغتهم التى يتخاطبون بها .. ولو أن هذا ما بدأنا نفطن إليه منذ أوائل العشرينات على أثر الثورة المصرية عام ١٩١٩ .. وعكفنا على هذين الوجهين للأدب اللذان يكمل أحدهما الآخر : أدب البحث والدرس بما يجلو نصوص الأجيال الغابرة ويظهر الفصحى فى أحدث وأبدع أثوابها ، وأدب التصوير والخلق بما يبرزه من أحوال المجتمع المعاصر فى نصوص حديثة سيفحصها الأدباء والباحثون فى الأجيال القادمة .. وهكذا دواليك .. لهذا أعتقد أن أدب التصوير لا يستطيع أن يقطع صلته بقضايا عصره ومشكلات مجتمعه ، دون أن يجد العنت والإرهاق اللذين يلقيهما هذا الأدب .. فأدبنا التصويرى إذن قد استلهم فى أغلب الأحيان منذ زمن طويل مجتمعه وبيئته ، واستخدم الريشة التى رآها مناسبة لأداء الألوان الطبيعية ، دون حرج أو احتفال بسرأى المتزمتين .. هذه الحرية الفنية فى تسجيل البيئة بلغاتها قد أخرجت ثروة من الأعمال

والأزجال ، فيها من صور مجتمعتنا المعاصر ما سوف يتأمله الباحثون في مستقبل الأيام .. ذلك أن لكل عصر طائفته من الأدباء الدارسين .. فجيلنا الحاضر هو جيل البحث في المتون الفصيحة ولذلك حظى أصحابه بالاحترام واعتبروا أنهم هم الأدباء ، أما الفن التصويرى ، وبالأخص المسرح ولفته العامة ، فلم يعتبروه من الأدب الذى يحترم .. وربما جاء الجيل القادم بالباحثين فى المتون الفصيحة والشعبية على السواء .. كما أنه قد يؤكد مكانة الأدب وصلته بمجتمعه فلا يخلطون أحيانا بين مهمة الأدب ومهمة الصحافة .. فليس هدف الأديب أن ينغمر فى المناسبات انغمار الصحفي ليخرج بشيء سريع يمضى سريعا .. ولكن هدفه أن يتشرب حاضره بتؤدة لينضجه بعدئذ شيئا لا يمضى يمضى الأيام .. أما بعد : فتلك بعض خواطر ، أثارها مراجعة هذه المسرحية القديمة (التى وضعت بالعامة فى إطار الفكاهة التى كانت سائدة فى ذلك العصر) .. ولعلها تثير فى قراء جيلها والأجيال الأخرى بعض الخواطر والذكريات .

(١٩٢٣ — المسرح النوع ١٩٥٤)

منظر من مسرحية « المرأة الجديدة »

عام ١٩٢٣

- محمود بك والد العروس « ليلي » وهو يتفرد بالعريس « سليمان »
 للكلام في موعد « كتب الكتاب » .. ويجرى بينهما هذا الحوار :
- محمود : نهايته .. نتكلم بقا في موضوعنا .. أنتم طبعا الحمد لله متفقين ..
 سليمان : قوى ... قوى ...
 محمود : عال ... يوم إيه بقى ؟ ..
 سليمان : هو إيه ؟ ..
 محمود : مش بتقول متفقين ؟ ..
 سليمان : طبعا .. متفقين في العشرة والأخلاق والطباع ..
 محمود : قصدى على يوم كتب الكتاب ..
 سليمان : آه ... لا ... لسة ما وصلناش للموضوع ده ...
 محمود : شىء جميل خالص ا.. لسة ما وصلتوش للموضوع ده ؟ .. آمال احنا
 جامعين العائلة إزاي .. علشان كتب الكتاب ؟ ..
 سليمان : طيب .. بس روق .. متفقين .. النهاردة مش الجمعة ؟ .. يوم الأحد
 بإذن الله ! ..
 محمود : عال .. قل لى بقى ياسيدى .. كتب الكتاب بالفرح بالكل يكون هنا ..
 حاجة مقتصرة كده وننتهى .. موافق ؟ ..
 سليمان : موافق ..
 محمود : ثم أظن أنا كنت قلت لك على الشروط ..
 سليمان : شروط إيه ؟ ..
 محمود : يعنى ثروة بنتى وجهازها و ..

- سليمان : آه .. قلت لي .. دا شيء معتبر جدا .. لكن مالوش عندى أهمية ..
محمود : طيب . وانت بقى ؟
سليمان : .. أنا موافق ومبسوط .. طبعا ..
محمود : لا .. قصدى .. وانت يعنى .. على . المهر ..
سليمان : مهر ؟! .. آه .. مضبوط ..
محمود : ما تأخذنيش فى السؤال ده .. مش لطيف .. لكن طبعا لازم نتفاهم قبل
« كتب الكتاب » على كل حاجة .. من جهة بتتى .. انت عرفت ..
ومن جهتك ؟ ..
سليمان : آه ... من الجهة دى ؟!
محمود : قل ... ما فيش خجل أبدا .. قل لي بيني وبينك .. مقدار ثروتك ..
واحنا نقدر .. طبعا المسألة مش مسألة فلوس أبدا .. انت عارف ...
الغرض نستوفى إجراءات العقد .. بس ..
سليمان : مفهوم ..
محمود : هه ! .. قد إيه بقى ؟ ثروتك بالضبط ؟ ..
سليمان : ثروتي ؟! يعنى .. كل أملاكى ؟ ..
محمود : آه طبعا ..
سليمان : يعنى يدخل فيها الملابس والموبيليات وأواني البيت وأدوات ال ..
محمود : أواني إيه .. وأدوات إيه .. ثروتك ؟ ..
سليمان : ما هو أصل المرحوم والدى كان ترك لي ثروة كويسة .. إنما بقى ولا يخفى
على فطنتكم إن الفلوس دى .. طبعا انت عارف ..
محمود : عارف .. أنا بأسأل على اللي باقى لك دلوقتى ؟ ..
سليمان : اللي باقى لي دلوقت ؟ .. شوف .. أنا ضربت الحسبة كلها فى بعضها
النهارده ، فوجدت اللي باقى لي .. هه .. شيء مخجل ! ..
محمود : قل .. مهما كان : ما يهمش أبدا ..
سليمان : لقيت اللي باقى لي .. هو ١٧ ..

- محمود : ١٧ فدان ؟
سليمان : احنا بتتكلم فى فلوس نقدية ..
محمود : آه .: بقى لك ١٧ جنيه إيراد ؟..
سليمان : ١٧ صاغ ..
محمود : ١٧ قرش صاغ إيراد ؟..
سليمان : رأس مال ..
محمود : (ضاحكا فى دهشة) رأس مالك ١٧ قرش صاغ !؟
سليمان : يا محمود بك .. أنا مش من اللى يجروا ورا المال .. أنا أحتقر المال !..
والفلوس عندى مالهش قيمة !.. لأن الحياة مش بالفلوس .. الحياة
تجيب الفلوس : لكن الفلوس ما تجيبش الحياة ..
محمود : صدقت والله يا سليمان !.. لا .. مش قصدى أبدا .. لا سمح الله !.. أنا
عارف أخلاقك كويس .. أنا من يوم ما شفتك عرفت إن الواحد
بأخلاقه يساوى كنوز الأرض .. وحمدت ربنا إن بنتى « ليلي »
اختارتك ..
ليلي : (تظهر) بابا .. فيه واحد جه ..
محمود : آه .. عن إذنكم .. (يترك سليمان وليلي وينصرف ..)
ليلي : (لسليمان) كنتم بتتكلّموا فى إيه ؟..
سليمان : كنا بتتفق ..
ليلي : على إيه ؟..
سليمان : على يوم « كتب الكتاب » .. خلاص حايكون إن شاء الله يوم
الأحد ..
ليلي : كتب كتاب مين ؟..
سليمان : كتاب مين ؟.. فيه حد غيرنا ؟.. كتب كتابنا .. طبعا ..
ليلي : تعرف المشمش ؟..
سليمان : المشمش اللى عند الفكهاني ؟.. والا اللى محفوظ فى العلب ؟..

- ليلي : المشمش وبس .. تعرفه ؟ ..
- سليمان : عارفه كويس .. المشمش اللي لونه أصفر ..
- ليلي : أصفر .. أحمر .. مسألة جوازنا دي في المشمش ! ..
- سليمان : يا نهار أسود ! ..
- ليلي : أسود .. أزرق .. حط كل الألوان اللي تعجبك ؟! لكن .. جواز مافيش ..
- سليمان : جواز مافيش !؟ ..
- ليلي : وأنا مستعجبة إزاي تكلم « بابا » في موضوع زى ده !؟ ..
- سليمان : آمال أنا جاي هنا أعمل إيه ؟ .. وصفتي في العائلة إيه ؟ ..
- ليلي : إزاي يا حضرة الأفندي تتفق معه من غير ما تقول لي ؟ ..
- سليمان : آه .. في النقطة دي صحيح أنا غلطان .. لكن لو تعرفي الحقيقة .. أنا معذور .. أنا موجود هنا بصفتي عريسك .. وأبوك زعل لما قلت له إننا لسه ما اتفقناش .. أعمل إيه ؟! اضطريت أكذب وأقول متفقين ..
- ليلي : متفقين ؟! ..
- سليمان : وفيها إيه ؟ .. مصيرنا كنا حانتفق .. ما دمنا بنحب بعض .. في أمان الله ! ..
- ليلي : بنحب بعض ؟ ..
- سليمان : آه .. طبعا ..
- ليلي : أنا ما بمحبكش ..
- سليمان : إزاي ؟ ..
- ليلي : كده ..
- سليمان : كده إيه ؟ .. لا .. أبدا يا ليلي مش ممكن ؟ .. انت ما بتحبنيش ؟ ..
- اشمعى أنا بحبك ؟ ..
- ليلي : حب على كيفك .. أنت حر .. وأنا حرة ..

- سليمان : مش معقول !..
- ليلي : سبق قلت لك إني بحبك ١٩.
- سليمان : لكن انت بتحبني تقعدى معايه وتتفسحى معايه ..
- ليلي : دا بس علشان انت جدع مسلى .. حكاية تضيع وقت !..
- سليمان : تضيع وقت ١٩؟ يعنى أنا عندك عبارة عن مضيعاتى أوقات .. زى الطاولة والضمنو واللب والفسدق .. تسالى ..
- ليلي : مش كده بالضبط .. انت عبارة عن واحد صاحبي .. صديق لا غير ..
- انت مالكش أصحاب اسمهم مثلاً : محمد يس .. حسنين ..
- عوضين ؟..
- سليمان : محمد يس .. حسنين . عوضين .. مين ؟ انت ؟..
- ليلي : بالضبط .. إيه الفرق ؟..
- سليمان : لأ .. مافيش فرق !..
- ليلي : الحكاية كلها عادة . عادة قديمة لازم تبطل .. أنا فى نظرك واحدة ست وبس .. لكن بكرة تتعود وتعتبرنى زى واحد صاحبك تماماً ..
- سليمان : واحد صاحبي تماماً .. بالشعر ده ؟ والرموش دى ؟ والشفاف دى ؟
- لأ اسمحى لى .. فلسفة المرأة الجديدة دى ما تدخلش عقلى .. ولو قعدت
- تقولى لى فى الكلام الفارغ ده ثلاثين سنة مستحيل أصدق إنه فى حاجة
- اسمها صداقة بين شاب وشابة .. يا يكون بينهم حب يا بلاش !..
- ليلي : بلاش ..
- سليمان : انت متراهنه على تطلع روحى ١٩؟ اسمعى بقى .. قولى لى آخر كلام :
- فيه جواز والا مافيش ؟..
- ليلي : مافيش ..
- سليمان : فيه حب ولا مافيش ؟..
- ليلي : مافيش ..
- سليمان : طيب .. سلام عليكم .. (يهم بالانصراف) .

- ليلي : رايح فين ؟
سليمان : رايح في داهية ..
ليلي : مش حاتلقى الداهية غير هنا ..
سليمان : وأنا قتيل الداهية دي .. مش منقول !..
ليلي : بس الداهية مش عايزاك .. ولا قابلاك .. بأفكارك القديمة دي .. اسمع
يا سليمان . خليك عاقل وافهم غرضي .. ليه انت مش عاوز نكون
أصحاب أصدقاء .. مافيش فرق بيننا .. كأننا احنا الاثنين رجاله .. ليه
مش عايز تعتبرني واحد صاحبك ؟..
سليمان : واسمك : محمددين .. حسنين .. عوضين ..
ليلي : أمال بكره لما حانكون نواب ومحامين ومهندسين ..
سليمان : وظباط وعساكر وحرامية .. وليه يارب الأذية دي ؟؟ مش قعدتكم في
البيت أحسن ؟!
ليلي : ضروري حايجي يوم نبقي كده !.. زينا زيكم تماما .. مافيش فرق
أبدا .. بيننا وبينكم ..
سليمان : تماما !..!.. طيب اسمعي يا ليلي .. ما تيجي نكتب الكتاب النهارده قبل ما
ييجي اليوم الأغبر ده ؟!
ليلي : مستحيل !.. جواز لأ .. صداقة ومساواة أيوه ..
سليمان : لكن ده لا بد يا ليلي .. أنا اتفقت خلاص مع أبوك ..
ليلي : اعرفوا شغلکم .. أنتم أحرار . وانا حرة ..
سليمان : والسبب إيه بس ؟.. الصداقة والمساواة والأفكار دي ؟.. طيب وانا
بقي علشان خاطر كده أعمل إيه دلوقت ؟.. داشيء يجنن ؟ يا ناس !..
الله يرحمك بقي يا « قاسم بك أمين » .. انتم يا ستات الواحد يترك لكم
حرية ؟.. نترك لكم حرية إزاي ؟.. إزاي بس !.. مش ممكن !.. الله
يجازي اللي حط الكلام ده في عقلکم !.

(المرأة الجديدة عام ١٩٢٣)

في الشعر

لا تلمنسى على البكاء فإني
نضو شجوا ما لمت فيه البكاء
عدلا يتـرك الحنين أنينـا
في هوى يتـرك الدموع دمـاء
كيف أغدو من الصباية خلوا
بعدمـا راحت الديـار خلاء
فجعلنا الوداع فيه سلامـا
وجعلنا الفراق فيه لقاء
(البحتري)

* *

إذا الحسان حملن الحلـى أسلحة
فإنما حليها الأجيـاد والمقـل
من لى يبارق رعد خلفه مطر
وكيف لى بعتاب بعده خجل
ولا ناصر غير دمعى إن هم ظلموا
والدمع عون لمن ضاقت به الخيل
(الشريف الرضى)

* *

الزوجة المثلى

لم يرو لنا التاريخ أن « النبي العري » (صلوات الله وسلامه عليه) عرف امرأة أو تحرك قلبه لامرأة قبل « خديجة » .. فلقد كانت حياته ، حتى الخامسة والعشرين حياة الشاب الهادئ البعيد عن النساء .. فلم يكن للهو والمرأة حتى ذلك الوقت مكان من اهتمامه أو تفكيره .. ما الذى كان يشغل رأس الشاب « محمد » فى تلك السن ؟ .. ما دام اللهو والمرأة لم يكن لهما محل عنده ؟ .. أترأه كان يحس فى قرارة نفسه بمصيره العظيم ؟ .. إن كل شاب يعيش مع شبح امرأة جميلة ، إلا الشاب الموعود برسالة عظمى ، فهو يعيش دائما مع شبح الرسالة المنتظرة .. ومن يدري لو لم تكن « خديجة » هى البادئة بالحب ما الذى كان يحدث ؟ .. كل شىء يدل على أن الزواج لم يكن ليخطر له على بال ... فقد كان يسير فى طريق تأملاته الداخلية وأحلامه العليا وكأنه لا يمشى على هذه الأرض .. إلى أن لحظته خديجة ذات يوم ، وقد كانت ذات مال وتجارة ، تبعث بها إلى الشام وتستأجر من أجلها الرجال ، فأرسلت الشاب « محمدا » فى تجارتها فعاد رابحا ضعفا ما كانت تربح التجارة على يد غيره ، لأمانته واجتهاده .. وقص عليها عندئذ غلامها « ميسرة » وقد رافق محمدا فى رحلته ما رآه من الشاب المستقيم الأمين .. فنبع الحب من قلب خديجة .. ولقد كان هذا الحب ساميا قويا عظيما فاستطاع أن يفتح قلب محمد .. ولقد كان ذلك رائعا حقا من امرأة مثلها ذات شرف وثروة ، أن تبدأ هى الخطوة الأولى نحو رجل فقير يتيم .. هى التى تقدم إليها أكرم رجال قريش نسبا وأعظمهم شرفا وأكثرهم مالا طلبوها فلم تلتفت إليهم .. وأرسلت تابعتها « نفيسة » إلى الشاب اليتيم « محمد » تعرض عليه يدها .. وتزوجته ورأت أيام شكه وقلقه وشقائه .. رأتة وهو يدخل عليها مرتعدا من الروع الشديد قائلا : « دثرونى .. دثرونى ! .. » فتدثره حادثة عليه ، قائلة له : « رحمة لى . خبرنى بأمرك » فيقول لها : « إني إذ خلوت بنفسى سمعت نداء خلفى : « يا

محمد » « يا محمد .. فأنتطلق هارباً في الأرض .. لقد خشيت على نفسي .. إني أرى ضوعاً وأسمع صوتاً .. وإني لأخشى أن أكون كاهناً يا خديجة ! .. والله ما أبغضت بغض هذه الأصنام شيئاً قط ولا الكهان ... فتقول له : « هون عليك ! .. والله ما يخزيك الله أبداً .. إن الله لا يفعل ذلك بك أبداً .. إنك لتصل الرحم وتصدق الحديث وتؤدى الأمانة وإن خلقك لكريم ! » .. وبهذا تسرى عنه .. ولا تهزأ به كما هزأ به قومه الذين سبوه وسفهوه وآدوه وحثوا على رأسه التراب .. بل آمنت به وصدقته يوم لم يجد حوله أحداً يحمل كلامه يحمل الجد .. ولقد جاءها يوماً يخبرها مرتاعاً أنه رأى ملكاً هبط عليه من السماء وكلمه وسمع صوته ، وليس يدرى أملك هو أم شيطان ؟ فأرادت أن تقطع شكه بيقين فقالت له : « إذا جاءك صاحبك هذا الذى يأتيك فأخبرنى به » .. فلما نزل عليه جبريل أخبرها .. فنزعت خمارها وقالت له : « هل تراه الآن ؟ » .. فنظر محمد فلم ير جبريل .. وقال « لا » .. وهنا صاحبت خديجة فرحة : « اثبت وأبشر .. فوالله إنه للملك وما هو بشيطان ، إذ لو كان شيطاناً لما استحيا .. » وهكذا ظلت خديجة إلى جانبه تبدد شكوكه وتؤمن برسالته .. إلى ساعتها الأخيرة .. ويوم علم أعداء محمد بقرب وفاتها ، تهامسوا فرحين : « خديجة فى الموت » .. ولم يستطع أبو لهب عدو النبى الأكبر أن يكتم اغتباطه فجعل يقول لمن معه : « أجل عما قليل تذهب تلك التى كانت تشد أزره وتعز شأنه » .. ولفظت خديجة روحها التى كانت منبع ذلك الحب .. الذى استطاع بقوته وسموه أن يفتح قلب محمد وأن يملأه كل تلك الأعوام التى عاشها .. بل إن هذا الحب لم ينطفئ بموت خديجة .. ولقد ظل مكانها من قلبه قائماً دائماً .. ولم تستطع امرأة قط أن تزاحمها فيه .. حتى « عائشة » التى كانت بعد ذلك أحب امرأة إلى قلبه ، ما استطاعت أن ترتفع إلى مكان خديجة من نفسه .. ولقد غرها يوماً حب النبى لها فقالت له بدلال : « أأست خير النساء عندك ؟! » .. فأجابها على الفور : « وخديجة ؟ » فقالت له : « ما تذكر من عجوز حمراء الشدين هلكت فى الدهر ، قد أبدلك الله خيراً منها » .. وكانت زلة .. لم تذكر مداها إلا بما بدا على وجه محمد من غضب شديد .. فقد نهض تاركاً لها المكان وهو يقول : « والله ما أبدلنى الله خيراً منها : آمنت بى حين كذبنى

الناس ، وواستنى بما لها حين حرمنى الناس « ..! وكظمت عائشة غيظها فى صدرها وهى تهمس : « لكأنه ليس فى الأرض امرأة إلا خديجة !.. » .. حقا .. نعم ليس فى الأرض غير قليل من النساء مثل خديجة !.. إن المرأة النادرة هى هبة الله الكبرى .. (تحت شمس الفكر ١٩٣٨)

البحث عن امرأة

وبالنسبة لى لا أقول نادرة ، بل فقط مناسبة لى . ولا حتى هذه بل فقط ترضى لى . ولبثت الأعوام أبحث حتى بلغت الكهولة ... دون جدوى .. فمضت شبابى وفوق رأسى لافتة أو « يافطة » مكتوب عليها « عدو المرأة » .. وقد سبق أن نشرت وصفا لذلك فى مقال قديم جاء فيه : « ... ومضت لى الحياة إلى حيث انقطعت للكتابة — بعد تركى السلك القضائى — وأخذت فى معالجة شئون المجتمع وقضاياها ، ومنها قضية المرأة وحريتها وملاحظاتي على ذلك التى ألصقت لى وصف « عدو المرأة » .. إلى أن كاد ينحدر لى العمر إلى الحد الذى ينجم اتخاذ قرار فى أمر الزواج قبل أن يفوت الأوان .. فاستخرت الله وقمت أسأل وأبحث .. فإذا الأبواب كلها تقفل فى وجهى .. أنا الذى كنت محل ترحيب العائلات وأنا وكيل بيابة .. وعلمت أن وصف « عدو المرأة » قد أخذ على سبيل الجد .. وما من فتاة فى سن الزواج تسمع باسمى حتى تصيح فى أهلها : « أعوذ بالله !.. إياكم أن ترموا لى إلى عدو المرأة هذا » ... كل امرأة كانت تتصور أنى وحش سيأكلها أو سفاح سيخنقها .. وما من صديق كلفته أن يبحث لى عن عروس إلا فشل فى مهمته .. وعاد قائلاً : « نعمل لك إيه ؟ .. النسوان خايفة منك ! » .. وجاءنى ذات يوم صديق عزيز متطوع ، رثى لحالى وصمم على أن يجد لى عروسا بأى طريقة .. ولكنه عاد بعد أيام يقول لى : « أنا كنت على وشك ضرب صديق قديم بحدائى من أجلك ! » ... وحكى لى ما حدث قائلاً : أنه كان مدعوا على الغداء عند هذا الصديق الحميم ... وكانت له بنت كبيرة متعلمة مهذبة وأخرى صغيرة لا تقل عنها تعليما وتهذيبا .. وبعد شرب القهوة قاده (فى الوقت الضائع — ج ٢)

صديقه إلى مكتبته وأشار إلى رف صفت عليه كتب مجلدة بماء الذهب وقال له بإعجاب : « انظر هذه مؤلفات توفيق الحكيم .. إني أعتر بها كل الاعتزاز .. إني من أشد المعجبين به » .. فانتهر صاحبي الفرصة ، وبادره قائلاً :

— ما دمت معجبا به هذا الإعجاب ، وتحفظ بمؤلفاته مجلدة بالذهب ، فإنه يسرك ولا شك أن تعلم أنه الآن عازم على الزواج .. وأنا أرى أن ابنتك الكبرى تصلح له جدا .. فما رأيك ؟

وإذا بصاحبي المسكين يفاجأ بهذا الصديق القديم الحميم والد البنت يتنفض غضبا ، ويصيح به في سخط وهياج :
— ما هذا التهريج يا رجل !.. هل أصابك الجنون حتى تتصور أني أزوج بنتي لهذا الفنان البوهيمي الحشاش الأفيونجي !؟

فبهت صديقي وقال :

— حشاش أفيونجي !.. دا طول عمره ما دخن سيجارة !..
فقال الوالد المحترم :

— اسكت بقى واقفل الموضوع .. أنا كنت فاكر أنك صديق عاقل مخلص !..
عمرى ما كنت أصدق أنك تطلب منى أوقع بنتى الغالية الوقعة السوداء الهباب دى !..

فنهض صاحبي محتجا وهو يصيح :

— وأنا كنت فاكر أنك شخص مثقف .. بنى آدم .. عمرى ما كنت أصدق أنك حيوان .. جاهل ... بالدرجة دى .. اخص عليك . منحط مغفل .. عديم الفهم والإدراك .. سلام عليكم !..

وخرج من بيته وقد تمت القطيعة بينهما بسببى .. ويئست أنا من الزواج . ثم جاءتنى الفكرة فى نهاية المطاف أن ألجأ — كما ذكرت — إلى زعيمة النهضة النسائية « هدى شعراوى » رافعا الراية البيضاء ، شأن العدو المنهزم الطالب التسليم بغير قيد ولا شرط . واستقبلتنى السيدة الزعيمة بالترحاب فى صالون قصرها المشيد على طراز العمارة الإسلامية فى مكانه الذى كان مطلا على الميدان المسمى اليوم ميدان

التحرير .. وقبل أن أتفوه بكلمة بادرتنى هى بقولها :

— أنت ما زلت عدو المرأة ؟ ..

فما كدت أفتح فمى لأوضح الأمر وأبسط سبب زيارتى ، حتى سبقتنى هى إلى الكلام بقولها :

— عرفت أن عند بناتنا فكرة عقد محاكمة لك ؟؟

— محاكمة ١؟

قلتها وقد فوجئت بالفعل بذلك .. وفى وقت مجيئى لطلب الزواج ؟؟
فقلت :

— طبعاً .. لأنك عاوز ترجعنا لعهد الجوارى !..

وأخذت الزعيمة الفاضلة تسرد ما سبق لى نشره عن وجوب دخول المرأة المطبخ .
ثم عما كانت قد علمت به من إدلائى بحديث لصحفى أجنبى شبت فيه الزواج بالسيارة .. وقلت إن السيارة تسير بأربع عجلات ، فلماذا لا تسير الزوجية بأربع زوجات ؟... زوجة للمطبخ تيجد الطهو .. وزوجة للحديث تيجد الكلام .. وزوجة للخروج تيجد رفقة الطريق .. وزوجة للعقل تيجد التفكير .. وهذا التنويع فى الزوجات فى بكل الطلبات ويقوم بكل الاختصاصات .. وهو ما لا يتوفر ويتجمع فى زوجة واحدة .. وإذا اخترعت يوماً سيارة بعجلة واحدة ، فقد نأمل فى زوجة كاملة ناجحة سعيدة بزوجة واحدة ..

واجهتنى السيدة الزعيمة بكل ذلك وهى تقول أنها علمت أن الصحفى الأمريكى نشر حديثى هذا فى صحف عديدة بولايات أمريكا ..

قلت « هدى شعراوى » كل هذا ، بينما أنا أفكر فى المصيبة التى تقع على رأسى إذا أقيمت حقاً محاكمة تواجهنى بكل ذلك حضرات النساء .. وعندئذ يقضى على كل أمل فى الزواج ... لقد رأيت المخرج فى مواجهة الموضوع بشجاعة .. فقلت بسرعة :
— أنا جئت للصلح ..

— الصلح ١؟ ..

قالت الزعيمة وهى تفحصنى بنظرة طويلة لتأكد من جدية قولى .. وبادرت أنا

بشرح مقصدي :

— جئت أطلب مساعدتك في الزواج : زوجة واحدة والله العظيم .. زوجة
تفضلين أنت باختيارها لي .. نعم زوجة واحدة فقط .. ولو على سبيل التجربة
والاختبار ..

— تجربة واختبار ؟! ..

قالت في دهشة واحتجاج .. وفطنت أنا إلى أنها زلة لسان مني .. ولعنت غلطتي
التي تكشف عن نية لا تبشر بخير .. وحاولت جاهدا أن أزيل هذا الفهم من ذهنها ..
ومكثت عندها وقتا أقنعتها بحسن نيتي حتى هدأ خاطرها وابتسمت ورضيت أن تختار
لي عروسا .. وكانت هدى شعراوي في الحق سيدة فاضلة عظيمة متسامحة كريمة ،
فقامت على الفور واختارت لي واحدة من المقربات إليها المخلصات للعمل معها في
حزبها النسائي .. غير أنني ما كدت أعرف ذلك حتى دب القلق في نفسي ، وأدركت
أن مثل هذه الزوجة سوف تجعل من بيتي فرعا تابعا لمركز هذا النشاط لحزب النساء ،
وسوف يمتلئ منزلي بأعضاء و « عضوات » الحزب والصحافة ووجع الدماغ ، وأنا
الذي ابتعدت عن الأحزاب السياسية جميعا لأحتفظ باستقلالي في حياتي وتفكيري ..
وهكذا لم تنجح هذه المحاولة أيضا .. واستمرت بعد ذلك المحاولات .. وكلها باءت
أيضا بالفشل .. حتى دب في نفسي اليأس . أو كاد .. وانتهى بي الأمر أن طرحت هذا
الموضوع من رأسي . وتركت الله تعالى في علاه هو الذي يختار لي الزوجة .. إذا كان
قد قدر لي الزواج .. وهو أدري بي ، وبما يصلح لي .. وبما يناسب طبيعتي التي
خلقني بها : وهي التي تريد امرأة بجانبني وتشعرنى دائما بأنها غير موجودة ..

الزواج

١٩٤٦ / ٦ / ٦

وأخيرا .. اختار لي الله .. ومن أقرب الطرق .. فقد كان لي وقتئذ صديق أو على الأصح تلميذ .. لي كما يقول هو لارتباطه الثقافي بي .. فقد كانت بالفعل ثقافته هي التي قربته مني .. فقد كان يترجم أعمال سوفوكليس وأيرويديس من عمالقة الإغريق الذين أقدرهم .. تمكنه من اللغة الإنجليزية ودراسته في إنجلترا ضمن بعثة من المتفوقين عين بعد عودته فيها مدرسا في كلية أركان الحرب .. رأيت ذات يوم في الطريق إلى سينما مترو، وفي ذراعه سيدة في نحو الثلاثين .. فحسبته قد تزوج .. فأخبرني أنها أخته وأنه يخرج بها إلى السينما لأن شقيقهما الأكبر اللواء فتحى وأمه سودانية صالحة متغيب . وشقيقهما الأوسط الدكتور لطفي الأستاذ المساعد وقتذاك في كلية طب الإسكندرية مسافر في لندن .. وهي في ذلك الوقت وحيدة لأنها مطلقة ... لأن والدها اختار لها زوجها وهو شاب ممتاز خريج تجارة عليا واهتماماته كلها الأرقام والأعمال الاقتصادية والمصارف ومن أسرة ميسورة يعرفها جيدا .. أما هي فاهتماماتها أدبية ودراستها بدأت في المدارس الفرنسية ثم نقلها والدها بعد ذلك إلى المدارس المصرية فتعلقت بالأدب العربي .. وكلما أراد أن يدفع لها المصروفات أخبروه أنها حائزة على مجانية تفوق .. وأنها من قارئات مجلة الرسالة التي لا يقرأها وقتذاك غير طبقة المثقفين ، وكان هذا الاختلاف في طبيعة الثقافة قد جعل التفاهم متعذرا فلم ينجح الزواج .. ولهذا عندما أصبحت لي بنت لم أتدخل في اختيارها لمصيرها .. ولم نتكلم في هذا الموضوع بعد ذلك .. إلى أن هداني الله إلى التفكير في هذا الاتجاه .. وانتهى الأمر بأن فاتحت في ذلك شقيقها الأصغر وتلميذي فرحب بالطبع . ولو كان والدها على قيد الحياة لرفضني ، فقد كان يكره كتيبي ، وعندما رأى أولاده يقرأون كتابي « محمد » نصحهم بأن يقرأوا بدلا منه كتاب « حياة محمد » لهيكل ، وإن

كانوا قد فاجأوه يقرأ كتابي سرا ويقول إن هذا مجرد حب الاستطلاع .. ولولا شقيقتها الأصغر « فهم » لما تم هذا الزواج أيضا .. فقد كان هو المتحمس لى ... وكان له الفضل فى تسهيل كل شيء .. حتى وضعت العروس خاتم الخطبة فى أصبعها .. وأذكر الآن أنها قالت لى قبل إتمام العقد وهى تحمل الخاتم من أصبعها أنها تخشى أن يكون شقيقتها « فهم » هو الذى أثر على إرادتى وطلبت منى أن أعيد التفكير جيدا .. فطمأنتها وأكدت لها أنى لست فى مبدأ الشباب حتى تؤثر فى قرارى أى إرادة أخرى .. وبدأت الحياة الزوجية وبدأ معها الحنين إلى حياة العزوبة والحرية التى اعتدتها دائما .. مع أنها حفظت لى حريتى المطلقة .. فلم تنذر بكلمة أو إشارة عندما كنت أعود إلى المنزل قرب الفجر أو أدخل حجرتى الخاصة وأغلقها على نفسى وأكتب .. فكانت توفر لى الهدوء التام .. حدث ذات يوم أن كانت تمر فى سيارة « تاكسى » أمام مطعم فرأنتنى خلف النافذة المفتوحة أجلس إلى مائدة مع شابة أجنبية شقراء دعوتها إلى الغداء ، فعادت بالسيارة إلى شقيقتها وطلبت منه أن يذهب معها لترى منظرا يجب أن يراه فركب معها وأرته منظرى مع الشابة الشقراء ، فقال لها فى الحال : « وماذا فى هذا ؟ .. أنسيت أن زوجك فنان .. حاذرى أن تفاتحيه فى شيء كهذا » .. وبالفعل سكنت أكثر من عشر سنوات كبر فيها أولادنا .. واستشهد شقيقتها فى حرب فلسطين عام ١٩٤٨ .. وفى ذات يوم قالت لى وهى تبسم : « ما هى الآن أخبار الشابة الشقراء ؟ ... وقد كنت قد نسيت ذلك .. وتلك الشقراء التى كانت مستشرقة أو صحفية أو شيئا من هذا القبيل .. وعجبت أنها كتبت ذلك فى نفسها طوال تلك السنوات ... ولكنى لا أنسى لها موقفها يوم تعرضت أنا لهجوم عنيف فى الصحف ، وكان التليفون يدق باستمرار من معارفها يسألون عن أخبارى وهى تتظاهر بعدم الاهتمام ، إلا أنها كانت تأتى بهذه الصحف وتقرأ ما فيها من هجوم وشتائم ثم تخفيها عني .. حتى لا تزعجنى — وكان الرئيس عبد الناصر هو الذى انفعلى وغضب وعجب كيف يهاجمون كاتباً مثلى لا يستحق هذا الهجوم . وأبدي رأيه بأن قلدى أكبر وسام فى الدولة .. فسكنت الحملة بل أقبل مدبروها يهتئوننى ! .. ويوم تحدد موعد المقابلة مع عبد الناصر لتسلمى الوسام .. قالت لى زوجتى وهى توصلنى

إلى الباب : « مع الشكر للرئيس إيباك أن تفحصى له ..! » فتذكرت ذلك ونفذته عندما قابلته ... ومع ذلك بعد أن مات عبد الناصر وسمعت بأني كتبت « عودة الوعي » وقيل إنه هجوم عليه وكانت هي على فراش المرض ، همست بصوت ضعيف لا أكاد أسمعه تعبر عن استنكارها لما كتبت ، ولم تكن في حالة أشرح لها فيها السبب وهو تمزق بين الوفاء والوطنية .. وعدم احتمالي أن أرى في مجلس نوابنا رقصا ونحن في كارثة الهزيمة ..! ولم تكن حياتي الزوجية لها ميسرة .. فأنا زوج من طراز أزواج القرن التاسع عشر .. لا اختلاط .. ولا خروج لزوجتي معي .. وأكثر وقتي وحدي في حجرتي الخاصة مع كتيبي وأوراق .. أما أولادى الأربعة فقلما أكون بينهم . وأقول الأربعة لأنى لم أفرق بين أولادى من زوجتي وأولادها من زواجها السابق وهما بنتان لطيفتان ... ولم يكن الأمر مجاملة منى لزوجتي بل كان ذلك شعورا طبيعيا منى ، لأنى بين نفسى والله تعالى كنت أدعو هامسا بدعاء واحد أن يحرس لى أولادى الأربعة . وهؤلاء الأربعة أنفسهم مرتبطون فيما بينهم برباط شعورى طبيعى من الحب كخير ما يكون الرباط الوثيق بين الأشقاء المتحايين .. وكذلك معاملتهم معي وحبهم لى كأب للجميع .. وهذا أيضا من فضل ربى ، وإلهامه الأم والزوجة الصالحة حسن التنشئة لأولادها وسلامة التوجيه .. ومع ذلك لم أخرج أنا عن طبيعتى الصارمة التى فى صرامتها تشبه طبيعة والدى فى صرامتها .. فقد كان ابنى يتسكوإلى والدته قائلا لها : لماذا لا يلاعبنا أبونا كما يفعل خالى الدكتور لطفى مع أولاده .. إنهم يتسلقون على أكتافه وهو يجرى خلفهم .. أنستطيع نحن أن نفعل ذلك مع أيينا ؟ .. فكانت أمهم تفهمهم أن أباهم مشغول فلا ترعجوه .. إلى أن سأها إسماعيل ابنى يوما قائلا لها : تصورى أن أبى يسألنى فى أى سنة أنا فى مدرستى ؟ إنه يجهل كل شىء عن حياتى المدرسية فكانت أمه تهون عليه وتقوم عنى بكل مطالب ومشاكل الأولاد .. لم أشعر بمتاعب أو مسؤوليات للأولاد ولا للزوجية .. كان أصدقائى يتراهنون على أبى لن أمكث فى الزوجية غير شهور قليلة ثم أتخلص منها وأؤلف كتابا بعنوان : « هكذا تزوجت ؟ » وربما جال ذلك بخاطرى فعلا .. ولكن زوجتى لم تعظنى هذه الفرصة .. ولم ترتكب الخطأ الذى يبرر هذا الإجراء .. ولذلك مرت الأعوام

والزوجية باقية ومستمرة في طريقها الطبيعي ... كانت تحدث بالطبع خلافات عائلية عادية من وقت لآخر .. ولكن الزوجة العاقلة كانت تحلها بهدوء لا تحشر أحدا من أهلها فيها وتحرص على أن تخفيها عن الجميع .. لم يحدث يوما أن تركت بيت الزوجية غاضبة ولو لساعة واحدة .. وقد حدث مرة أن غضبت أنا وأخذت حقيقتي لأخرج وأقيم في فندق فجرت خلفي وأخذت مني الحقيبة وأعادت إليّ هدوئي .. وهي التي وضعت تقليدا سرنا عليه سنوات إلى أن رقدت مريضة : هو أن توصلني إلى باب الخروج عند مغادرتي البيت كل صباح بقبلة .. وعندما يتصادف الخروج فجأة بدون هذا الإجراء كانت تتصل بي بالتليفون لتحقيق هذا التقليد اليومي تليفونيا .. ومع ذلك لم يكن زواجنا عن حب .. ولم تسمع مني أبدا كلمة حب .. وكانت تعرف ذلك .. وكان هذا هو الشيء الوحيد الذي يسخطني على هذا الزواج . وكنت أشكو إلى ربي قائلا : لماذا ياربي وأنا الذي أكتب كثيرا عن الحب تجعلني أتزوج عن غير حب ؟ .. إلى أن وصلت إلى الاقتراب من حكمة الله .. وقرأت الآية التي تقول : ﴿ ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون ﴾ صدق الله العظيم ... حقا إن الذي بيننا هو « المودة والرحمة » ... والله تعالى لم يقل « وجعل بينكم الحب والهيام .. » .. لماذا ؟ .. لأن الحب أو الهيام هو الزائل .. وكم من زواج بنى على الحب والغرام فتغير واشتكى الطرفان أو على الأقل الزوجة أن العاطفة المتأججة أيام الخطبة أو شهر العسل قد هدأت .. ولو تأملوا قليلا حكمة الله لأدركوا أنها لم تنطفئ ولكنها تحولت إلى العاطفة الأبقى والأثبت وهي « المودة والرحمة » . ولإدراكى لحكمة الله في هذه الآية ، وأنه اختار لي في هذه الزوجية الهادئة العاطفة الباقية الثابتة التي ذكرها في قرآنه الكريم .. هدأت نفسي واستقبلت بالرضا حياتي هذه « الزوجية المبنية على حكمة الله » . وأخذت أرى أن الله قد حباني باختياره هو لي هذه الزوجة الملائمة لي ، فقد طغى على تفكيري أمر استبد لي : وهو السفر إلى باريس مرة أخرى ونحن على أبواب الستينات كما سافرت أول مرة في العشرينات لأجدد إلهامي الفني وأكتب عملا كبيرا .. وسعيت للالتحاق باليونسكو .. ومعنى ذلك أن أترك زوجتي وأولادي لمدة

سنة على الأقل .. وعلى الرغم مما فى ذلك من مشقة للزوجة والأسرة إلا أنها وقفت إلى جانبى وتوسلت إلى الله بدعواتها أن يحقق لى ذلك .. وسافرت بمفردى .. لأتفرغ لعملى الأدبى والفنى .. ولم أكن متأكدا من السفر .. ولكنها بشفافية روحها أخبرتنى ذات صباح أنى سأسافر يوم كذا سنة كذا . وكان بالضبط يوم ٥ مارس ١٩٥٩ كما قالت هى تماما .. وكثيرا ما كانت ترى وتنبأ بأشياء وأفسرها أنا بأنها شفافية روح : لأنها كانت عميقة الشعور الدينى والإيمان بالله .. كثيرة القراءة فى القرآن والكتب السماوية (الكتاب المقدس المجلد بعهديه القديم والحديث أى التوراة والإنجيل) .. وفى أوروبا تسأل عن بيوت الله فيدلونها على الكنيسة فتدخل وتضىء شمعة للعدراء وتدعو الله فى خشوع .. وهى حريصة على الشعائر وخاصة « الزكاة » وكان اعتمادى عليها فيها .. وخاب أملى فى باريس . ولكن زوجتى أزرتنى برسائلها .. وكدت أتم سنة . وفى آخرها اقترحت عليها أن تلحق بى فى باريس لتشاهدها .. وجاءت وكانت من أجمل أيامنا هناك . وظهرت لى زوجتى فى صورة لم أكن أتوقعها منها .. فلم تكن المرأة المصرية التى كانت تصور عادة باللخمة أو التفاهة .. بل على العكس ذهبت معى إلى متحف اللوفر وجعلت تفحص الصور بكل اهتمام وصبر وتلح على البقاء طول النهار .. وذهبنا إلى دار الأوبرا حيث شاهدت أوبرا « فاوست » المأخوذة عن « جوته » وهى عميقة .. كما شاهدت معى فى الكوميدي فرانسيز مسرحية من أصعب المسرحيات وهى « الحلم » لسترنديج ... وشعرت أنا نفسى بشيء من الإرهاق فى متابعتها وما أن جاءت الاستراحة حتى أردت الانصراف كى أنام .. أما زوجتى فقالت : ألا تبقى لتتابع القسم الباقى ؟ .. كانت مستمتعة أكثر منى مع صعوبة مؤلف مثل « سترندبرج » ! وكانت تتحرك فى أرجاء باريس وكأنها تعرفها من سنوات .. وجاء الصيف ورأينا أن نصعد إلى جبال الألب . ونزلنا فندقا تشرف فيه حجرتنا من جهة على الجبل بقمته المكسوة بالجليد ومن الجهة الأخرى على غابة خضراء يمرح فيها بقر فى رقابه أجراس صغيرة .. وجاء يوم ٦ يونيه وهو يوم زواجنا ... فأردت أن أسرها وأحتفل بهذا اليوم وكان يوافق ربع قرن على هذا الزواج . وحادثت فى ذلك مديرة الفندق فاقترحت أن تعد « تورته » مكتوبا عليها

« ربيع قرن زواج » ، وفي الغداء قدمت هذه التورتة وكلفنا الفندق أن يقطعها أجزاء يقدم إلى كل نزيل من نزلاء الفندق نصيبا عند الغداء . وسر التزلاء بذلك ونهضوا في طابور يقدمون إلى زوجتي الشكر والتهنئة .. ومن بينهم شيخ أمريكي ومعه زوجته .. أعلنوا أنهم هم أيضا سيقلدوننا ويحتفلون بمرور ثلاثين سنة على زواجهم .. كانت زوجتي سعيدة بذلك .. وكانت أول مرة تجد مني هذا الاهتمام بها .. وأنا أشكر الله الذي هداني إلى حكمته .. وإلى آيته الكريمة عن « المودة والرحمة » أبقي عاطفة وأثبت دعامة للحياة الزوجية ..

عيد الزوجية

عندى اقتراح : على غرار عيد الأم 'حبذا لو أنشئ « عيد للزوجية » يتبادل فيه الزوجان التهنئة بمرور الزمن الذي مضى على الزواج . ويقدم فيه كل طرف للآخر ولو زهرة ويحتفل فيه الطرفان بهذه المناسبة على مائدة عليها « تورتة » عليها تاريخ عام الزواج ..

الوفاة

وجاء يوم الوفاة : ٢٩ إبريل ١٩٧٧ الموافق ١١ جمادى الأولى ١٣٩٧ الساعة الثالثة والنصف بعد الظهر وكان يوم جمعة وكنت أنا في الخارج مع أصدقائي .. وقدموا إليها الغداء فرفضت تناوله حتى أعود وتراني .. وعدت في الساعة الثالثة .. فطلبت الغداء وأكلت .. ثم همست في أذني : « أنت حاتزن على .. » ثم شهقت مرتين : « آه .. آه .. » وأسلمت الروح ... ماتت وهي غير واثقة من شعوري نحوها ... فهي طوال حياتنا الزوجية لم تسمع مني لفظة « حب » ... وبعد أيام

نهضت بنتى « زينب » من نومها وهى ترتعد قائلة أنها رأت أمها رؤية العين تظهر لها ثم تركتها واتجهت إلى حجرى قائلة لها إنها تريد أن تلقى على نظرة .. لأنها عرفت الآن أنى أحبها ...

خطاب منها

عندما سافرت إلى باريس مندوبا دائما لمصر فى اليونسكو يوم ٥ مارس ١٩٥٩ لم تمض أسابيع قليلة حتى وصلنى منها الخطاب الآتى .. وهذا نصه :
القاهرة فى أول أبريل ١٩٥٩
زوجى العزيز ...

لا تعلق أهمية على تاريخ الخطاب . فبالرغم من أن اليوم أول إبريل إلا أن كل ما سأقوله حق وصدق .. لقد اتفق الناس على الكذب أول إبريل وأختلف أنا عنهم اليوم .. وصلنى خطابك العزيز أول أمس .. وكنت كل يوم أمر على صندوق البوستة وأفتحه وأحيانا أكون خارجة فأفتحه ، وأعود بعد قليل وأنا متأكدة أن لا شىء بداخله فأفتحه يدفعنى أمل واحد هو خطاب منك .. أصبحت حياى وأعصابى متوقفة على شىء واحد : خطاباتك .. إن وصول خطاب منك فرحة كبيرة .. نلتف أنا والأولاد حوله ونقرأه بسرور بالغ .. وأسرح أحاسب نفسى كيف ارتضيت أن أتركك تسافر ؟. وكيف تم هذا وأنا بهذا الشعور ؟. أعود فأقول إنك لم تتركنا لتحقيق رغبة عندك وحدك بل هى رغبتنا وإحساسنا جميعا بنحوك ونحو آمالك .. كل ما أرجوه أن تعود إلينا منتصرا وبذلك أكون قد أكملت رسالتى كزوجة محبة مخلصه بجوارك .. أما من ناحية الإشاعات فأخبر إشاعة أنك موجود فى مصر ونازل فى بنسيون وأن بيننا سوء تفاهم .. تصور ما يقوله الناس ؟ هذه المهاترات ليس لها جواب عندى .. كل ما ساعنى فى خطابك أنك وجدت باريس قد تغيرت ولذا أخشى أن تكون قد

تضايقت .. وعشمتى أن يكون عملك محبا لنفسك فأنت لم تسافر إلى باريس للفسحة بل لهدف معين .. وكلنا فى غاية الشوق إليك .. وأخيرا قبلاتى التى لا تعد ولا تحصى ...

زوجتك المخلصة — س

التبؤ بالوفاة

لى صديق شاعر هو « عبد الرحمن صدقى » فجمع بوفاة زوجته وأنشأ قصيدة هزنتى .. ولم أكن أنا قد تزوجت بعد .. فبعثت إليه بهذه الرسالة التى نشرها فى كتابه « من وحى المرأة » وهذا بعض ما جاء فى رسالتى إليه رحمه الله هو أيضا :

« عزيزى الأستاذ عبد الرحمن : لقد أحزنتنى وأبكيتنى بقصيدتك المنشورة فى مجلة « الثقافة » ولكنى أكتب إليك لأنى أبكى حالى المائل لحالك : فقولك :

كان لى فى أخريات	العمى بيت فعدمت
سنوات أربع أم	كان ذا حلماء حلمته
فما لى إلى الأسفار بعدك نهضة	ولا متعة فيما يشوق ويونق
وكنت جعلت القفر حولى جنة	وقام من الفوضى نظام منسق

إلى الوحدة الباردة مرة أخرى وقد ذقت دفء الحنان !.. إلى فوضى الحياة من جديد وقد ولى الشباب !.. اللهم الصبر لك !.. إنى أشعر بما أنت فيه وأحس ما تحس وأرثى لك ولنفسى فى موقفك وأسأل السماء الرفق بك ...

توفيق الحكيم

خطرات في الدين

على أحد أطام « يثرب » نظر يهودى إلى السماء ذات ليلة ، ثم صاح صيحة مدوية : « طلع الليلة نجم « أحمد » .. أحقا لم ير ذلك اليهودى نجم أحمد قبل تلك الليلة ؟ .. إن نجم أحمد طالع فى كل لحظة ، يشع نورا من بداية الكون ، لو أن للكون بداية ، إلى نهاية الزمن لو أن للزمن نهاية ! . نجم أحمد هو الحق .. والحق لا يبدأ ولا ينتهى .. ولا يظهر ولا يختفى .. إنه موجود .. إذن ما الإسلام ؟ وكيف ظهر بظهور « محمد » ، والمسيحية بظهور « المسيح » واليهودية بظهور « موسى » ؟ هنا لازم التفريق بين الحق و « ثوب الحق » .. بين المعنى والأسلوب . ما الإسلام إلا أسلوب من أساليب الحق ، ورداء من أرديته .. كذلك كل دين من الأديان السماوية ، التى تتحد فى الجوهر .. وهو مصدر النور الإلهى « الله » .. وتختلف فى المصباح الذى يشع من خلاله النور ..

أيها الإنسان .. إن الدين هو الذى يرفع بصرك إلى أعلى .. إلى أعلى من أرضك ومن فمك .. وإذا استطعت أن ترفع بصرك إلى أعلى من فمك فأنت أرقى من الحيوان .. وإذا ارتفعت إلى حيث تدرك وجود « الله » فأنت سيد الكائنات ..

كل شىء قد يعرفه الحيوان إلا « الدين » .. لو عرفت جماعة من الحيوان يوما معنى الدين لأصبحت فى الحال بشرا ساجدين .. وإن كان كل شىء فى الكون يسجد لله ، فهو سجود طبيعى تلقائى . أما سجود الإنسان فهو شىء آخر : سجود بالوعى والفكر والإيمان .. ما من شىء نفخر به نحن الآدميين إلا أننا نسجد من أجل فكرة عليا ، جاءتنا من السماء ... ونتحمس من أجل معنى مقدس .. وتعرف قلوبنا ما هو « الإيمان » ..

إن الله تعالى يريد أن تعيش الأحياء طبقا لقوانين الحياة التى وضعها لها ، وأن تجاهد فى سبيل هذه الحياة ، وأن تتغلب على عناصر الفناء ، بما هيأها لها من مناعة طبيعية أو

مناعة اكتسائية .. والدين هو أداة المناعة الاكتسائية لمكافحة عناصر الفناء المادية والمعنوية ..

ولما كانت غاية الدين عند البشر هي توفير أسباب الحياة الصحيحة ، والدنيا الصحيحة خير تمهيد لآخرة صحيحة ، فإن الإسلام له صوت جهير في الدعوة إلى صحة الجسم وصحة العقل وصحة العقيدة .. وجاء عن أبي هريرة هذه العبارة الرائعة : ثم خلق الله تعالى العقل فقال الجبار : « ما خلقت خلقاً أعجب منك » .. إن الله لم يخلق هذا العقل العجيب عبثاً .. بل خلقه ليرقى به الإنسان إلى حيث يدرك ما كتب له إدراكه من قوانين الكون . وفي هذا الإدراك إرادة الله في أن يكون الإنسان أرقى مخلوقاته على هذه الأرض ، لأن في هذا الرقى والإدراك استمرار لبقاء الإنسان في مواجهة الأخطار التي تهدد بقاءه . والله يخلق الأنواع ويخلق معها أدوات مقاومتها ووسائل بقائها.. ولذلك جعل الله تعالى أهم دعوة للإنسان هي « التفكير » . وقال في كتابه الكريم ﴿ ويتفكرون في خلق السموات والأرض ﴾ . وقال ﷺ : « لا عبادة كتفكر » ..

(تحت شمس الفكر ١٩٣٨)

الماء الحي

عام ١٩٤٨

« .. وكان لابد له أن يجتاز السامرة .. فأقى إلى مدينة في السامرة يقال لها « سوخار » بقرب الضيعة التي وهبها يعقوب ليوسف ابنه .. وكانت هناك بئر يعقوب .. فإذا كان « يسوع » قد تعب من السفر . جلس على البئر .. فجاءت امرأة من السامرة لتستقي ماء .. فقال لها « يسوع » : — أعطيني لأشرب ...

لأن تلاميذه كانوا قد مضوا إلى المدينة لبيتاعوا طعاماً ..

فقالت له المرأة السامرية :

— كيف تطلب منى لتشرب ، وأنت يهودى ، وأنا امرأة سامرية ؟
لأن اليهود لا يعاملون السامريين ..

أجاب « يسوع » وقال لها :

— لو كنت تعلمين عطية الله ، ومن هو الذى يقول لك « أعطيني لأشرب »
لطلبت أنت منه ، فأعطاك ماء حيا ..
فقالت له المرأة :

— يا سيد .. لا دلو لك . والبئر عميقة . فمن أين لك الماء الحى ؟..ألعلك
أعظم من أبينا يعقوب الذى أعطانا البئر ، وشرب منها هو وبنوه ومواشيهِ ؟..
أجاب « يسوع » وقال لها :

— كل من يشرب من هذا الماء يعطش أيضا ، ولكن من يشرب من الماء الذى
أعطيه ، يصير فيه ينبوع ماء ، ينبع إلى حيوات أبدية ..
درس « يسوع » ليس للأفراد وحدهم .. بل للدول أيضا .. هذه الحروب التى لا
ينطفئ سعيها .. إنما هى علامة عطش !.. متى تؤمن الدول القوية أن هذا العطش لا
يطفئه الطغيان ولا السيطرة .. كل دولة تشرب من بئر « السيطرة » تعطش أيضا ..
أيها الدول الكبرى لا تغترى ولا تظنى « القنابل الذرية » تطفى عطشك .. بل تبقى
أن الذى يطفئه إلى آخر الأزمان هو ذلك الماء الحى ، الذى تحدث عنه السيد المسيح ..
(من فن الأدب ١٩٤٨)

شبح الحروب

عام ١٩٧٧

خوفنا الحاضر من شبح الحرب دفع هيئة « اليونسكو » فى باريس إلى دعوة جماعة
من مفكرى العالم حوالى عام ١٩٧٧ إلى اجتماع يتبادلون فيه الآراء لدرء هذا الخطر

الذى يهدد النوع البشرى كله .. فالحرب اليوم بأسلحتها الحديثة الرهيبة معناها الفناء الشامل .. والسلام هو الحل الوحيد .. وكنت من بين المدعوين .. فألقيت كلمة قلت فيها : « إن السلام أصعب من الحرب ... لأن الحرب غريزية .. ما أن نشعر بتهديد ما حتى تستيقظ فينا غريزة حب البقاء ، فننهض للكفاح .. أما السلام فهو ينبع — لا من الغريزة — بل من الحكمة .. والحكمة هي صفة عليا خاصة بالإنسان .. إن الحيوان لا يعرف غير الحرب فقط .. وعندما لا يكون أمامه حرب ، فإنه ينام ، أو يرقد بلا حراك .. ولا يمكن أن يتصور أن سكونه هذا بغير حرب يسمى سلام .. أما الإنسان الذى يسمى عدم الحرب بالسلام ، فإنه يحاول أن يطيل هذه الفترة بوسائل مقصودة .. وإذا كانت الحرب يعدها العسكريون ، فإن السلام يعده السياسيون .. وفي بعض الأحيان يعمل السياسيون في هذين الاتجاهين المتعارضين : يجهزون للحرب ، ويعدون للسلام .. هنالك صنف من الناس يعملون فقط في اتجاه واحد نحو السلام فقط .. هؤلاء هم المفكرون أو الحكماء .. وهذا هو سبب اجتماعنا هنا : للكلام في « السلام » وحده .. وعلينا أن نكتشف ونحلل العناصر التى تهدد السلام .. والعنصر الهام فى رأى هو « الخوف » .. فالخوف عند الإنسان كما عند الحيوان هو ينبوع العدوان .. هناك أيضا ينبوع آخر .. وبالأخص عند الحيوان المفترس هو : الجوع .. فهذا الحيوان عندما يجوع يصبح خطرا .. وهذا ما يحدث عند الإنسان أيضا .. فالأمة إذا جاعت لا تجد أمامها من طريقة سوى العنف .. الحرب .. إذن الخوف والجوع هما مصدر الحرب عند الحيوان والإنسان .. والإنسان والحيوان عندما تكون المعدة لكل منهما ممتلئة فإنه يكون مسالما .. ومع ذلك فهناك نوع ثالث للحروب .. نوع لا يعرفه الحيوان .. فهو من خصائص الإنسان وحده .. إنه النوع الفكرى : الأيديولوجية .. فالإنسان يريد أن يفرض أفكاره على الآخرين .. وأحيانا بالقوة .. والتاريخ يذكر لنا تلك الحروب الرهيبة التى كانت ترمى إلى فرض الأديان والمذاهب من ناس على ناس .. وحتى وقتنا الحاضر نجد خطر الحرب يمكن أن ينفجر فى أية لحظة بين شعوب بسبب الاختلاف الأيديولوجى .. فلم تزل مع الأسف هذه الفكرة المجنونة موجودة : وهى أن العالم يمكن أن يعيش بأيديولوجية

واحدة .. للشاعر المعاصر « بول فاليري » كلمة حكيمة : هي قوله : « فلنثر أنفسنا
ببراء مفيد من خلال خلافاتنا » .. إننا نختلف لأن ما عندي يختلف عما عندك ..
فلماذا لا يضيف كل منا ما ليس عنده إلى ما عنده ؟ فتكون نتيجة الإضافة ثراء ؟
لقد كتبت أنا مرة هذه العبارة « يجب أن نضع في مكان كلمة « نفرض » كلمة
« تبادل » .. إن تبادل الأفكار فيه « جمع » .. بمعنى أن وضع رأى إلى جانب رأى
هو « جمع » .. أما فرض الفكر الواحد فهو « طرح » .. بمعنى أن إلغاء رأى بفعل
طغيان رأى واحد فقط فهو : « طرح » ..

كذلك يجب أن نستبعد عن الأذهان وخاصة أذهان أطفالنا ما يوحى بالعنف
والحرب مثل لعب « المدافع والسيوف والدبابات » ونحو ذلك .. وأن نراجع كتب
التاريخ فنضع الحروب في أماكن ثانوية ، ونبرز في أماكن الصدارة قيمة العلم ، ونماذج
الأبطال ليس رجال السيف بل رجال الروح .. وكل ما يساعد على سمو الفكر ويكفل
للإنسانية السلام والهناء ..

(مطبوعات اليونسكو ١٩٧٧)

غلام القبطية

عام ١٩٣٦

كان رسول الله ﷺ في حى بالمدينة ، بين رهط من الناس ، عندما جاء « أبو
رافع » وهو يجرى ويلهث ليقول له : « يا رسول الله .. أبشر .. أبشر .. ولدت لك
مارية القبطية الليلة غلاما .. فتهض النبي معلنا : « أيها الناس ! .. ولد لي اليوم
غلام .. وإني سميته باسم أبى إبراهيم » ..

وفي ذلك الوقت كانت عائشة في مسكنها حزينة تقول لأُمها : « وددت والله أنى
أنا أم هذا الغلام !.. لقد حجب رسول الله « مارية » .. نعم إنها قد ثقلت على
نسائه .. وتنافست فيه نساء الأنصار أيتن ترضعه !.. وتدخل وصيفتها « بريرة »

(في الوقت الضائع — ج ٢)

تعلن : رسول الله جاء .. ويدخل النبي فرحا يحمل ابنه إبراهيم بين ذراعيه ..
ويقول : يا عائشة .. انظري .. انظري .. انظري إلى شبهه لي !.. فتقول عائشة :
ما أرى شيئا ..

فيقول النبي : ألا ترين إلى يياضه ولحمه .. فتقول عائشة : من سقى ألبان الضأن
سمن وابتيض ..

وينظر النبي إلى ابنه قائلا : أما دريت يا عائشة ؟ لقد جاء إلى « جبريل » فقال :
« السلام عليك يا أبا إبراهيم » !.. ألا يسرك هذا ؟.. مالك يا عائشة ؟.. أغرت ؟..
إنك والله قد غرت ..

ومضت أيام .. وبينما كانت عائشة وحدها في مسكنها دخلت عليها بريرة تجرى
وهي تلهث قائلة : أجهلك الخبر ؟.. لقد مات إبراهيم !.. فنهضت عائشة وهي تقول
في فرح : غلام القبطية !؟..

وكان النبي في « البقيع » ومعه الفضل بن عباس وأسامة بن زيد يحملان جثة
إبراهيم وخلفهم « مارية » تبكي . ونساء من الأنصار والمهاجرين وحفار يحفر قبرا ..
والنساء يصحن : « إن له إن شاء الله مرضعا في الجنة .. » .. والنبي على شفير القبر
يسوى بأصبعه الجلد : أرى فرجة في اللحد !..

الحفار — أما يا رسول الله لا تضر ولا تنفع ..
محمد — أما إنها لا تضر ولا تنفع .. إن العبد إذا عمل عملا أحب الله أن يتقنه ..
الفضل — (ينظر إلى التراب وقد أهيل على إبراهيم) رحمة الله على إبراهيم !.. لو
عاش لكان صديقا نبيا ..

محمد — لو عاش إبراهيم لوضعت الجزية عن كل قبطي !.. (وتسيل الدموع من
عيني النبي ..)

أسامة — أتبكي يا رسول الله ، وقد نهيت عن البكاء !؟..
محمد — إنما أنا بشر .. تدمع العين ويخشع القلب .. ولا نقول إن شاء الله إلا ما

يرضى الرب ، والله لولا أنه أجل معدود ، ووعد صادق ، ووقت معلوم ، وأن آخرنا لاحق بأولنا ، لجزعنا عليه جزعا غير هذا .. إنا عليك يا « إبراهيم » نحزونون !..
(كتاب محمد ١٩٣٦)

قوة الروح

عام ١٩٤٧

قالت لى عصاى : هل تعتقد حقا أن الروح يمكن أن يكون لها أثر فعلى ؟.. وأن القيم الروحية يمكن أن تكون مصدر سلطة فى بلد من البلاد ؟..
قلت : أومن بذلك كل الإيمان .. على شرط أن تتجلى الروح بنورها وحده .. لا ببريق زينة مادية .. وأن تعتمد القيم الروحية على جوهرها فقط .. لا على مظاهر قوية دنيوية ... إن اليوم الذى نستطيع فيه أن نجعل الناس يشعرون بوجود سعادة خفية ليس مبعثها المادة .. وأن نجعل المجتمع يشعر بوجود فرد أو جماعة يستمدون هبة وقوة وجلالا من مجرد قيم معنوية عارية عن المال والجاه ، هو اليوم الذى يمكن فيه إقناع الناس بوجود « الروح » .. ذلك أن الناس لا يرون أمامهم غير السعادة واللذة اللتين يأتى بهما الجاه والمال ... فهم إذن معذورون إذا اندفعوا نحو هذا النهر الأصفر ، يعبون منه ما استطاعوا ، ليرووا عطشهم الذى لن يروى .. لأنهم يجهلون وجود البئر بذلك الماء الحى الخفى ، الذى لا يريق فيه ، ولكن فيه الرى ... ما من مثل يثبت للناس أن رجلا بغير قوة المال والجاه استطاع أن يكون سعيدا وقويا ... خلا الأنبياء والرسل ، وبعض الأفذاذ أمثال « غاندى » .. وهنا قالت عصاى : يكفى أن ينهض رجل واحد .. رجل روح حقيقى لقلب التاريخ ... أوبعد هذا نشك فى قوة الروح ؟!..
(عصا الحكيم عام ١٩٤٧)

الزوجان والشيطان

عام ١٩٥٦

في حجرة بسيطة الرياش .. في زاوية منها مكتب تكدست فوقه الكتب والمجلدات .. وإليه جلس فيلسوف يقرأ ويفكر في هدوء الليل .. وفجأة سمع طرقا خفيفا على الباب .. ويظهر على العتبة شخص ، ما أن وقع نظره عليه حتى عرفه وقال : الشيطان !.. نعم ثيابك الحمراء . وقرنيك الصغيرين . وأنفك الطويل !.. فقال الشخص نعم . أنا بعينه . وبالصورة التي تعرفونها . وصنعتها لكم خصيصا . ولو أنى لست كذلك ... ولكن كذبة مشهورة أجدى من حقيقة مستورة !..

الفيلسوف : طلباتك ؟..

الشيطان : أنت فيلسوف ... ومفكر ... فكري ...

الفيلسوف : حالا .. (ويضع رأسه بين كفيه) ها أنذا أفكر ...

الشيطان : أرجو أن يتمخض ذهنك الجبار عن الفكرة الفعالة ...

الفيلسوف : وجدتها ... وجدتتها ...

الشيطان : وجدت ماذا ؟، إنك لم تعرف منى ما هي المسألة !..

الفيلسوف : فعلا ... كان يجب أن أسألك قبل أن أفكر ...

الشيطان : إنك فكرت قبل أن تسأل ...

الفيلسوف : لا تؤاخذنى ... غلبت عندى العادة .. نحن معشر الفلاسفة نفكر

طويلا ثم ينتهى تفكيرنا إلى سؤال ...

الشيطان : لا ياسيدى ... أرجوك ... لا تضيع وقتى ... إني جئت إليك في هذه

الساعة من الليل كي تفكر لي تفكيرا ينتهى إلى حل ...

الفيلسوف : فلنبدا إذن بالسؤال : ما هو الحل ؟..

الشيطان : أعرف أولا ما هي المسألة ؟...

الفيلسوف : وما هي المسألة؟؟...

الشیطان : الحرب .

الفيلسوف : (في دهشة) الحرب ؟! .. وهل الحرب مسألة تهملك ؟! ..

الشیطان : إنها مسألة حياتي أو موتي ... الحرب القادمة ستدمر الدنيا بمن فيها ..

أى أنها القيامة .. ووجودي مؤجل إلى يوم القيامة ، كما أعلن الخالق سبحانه وتعالى ... ولذلك لم أجد إلى رجال حكم وجيوش وسياسة .. لأن هؤلاء هم صناع الحرب . ولم أجد أمامي من أذهب إليه لمنع خطر الحرب سوى فيلسوف ...

الفيلسوف : وأنا عندي خبرة بالحرب ... لأنني متزوج ...

الشیطان : وهل أنت متزوج ؟!

الفيلسوف : طبعاً ... ولذلك أنا فيلسوف ... لأن كل زوج قضى في الزوجية -

عشرة أعوام فما فوق ينقلب تلقائياً إلى فيلسوف ، دون تعلم حرف في الفلسفة ! .. (يفتح فجأة باب الحجر وتندفع منه امرأة ...)

المرأة : (صائحة) أما كفى قراءة وكتابة ؟! هذا النور الكهربائي في

الفاضي ؟! .. تبقيه طول الليل ... أهو بنقود أو بغير نقود ؟! .. ألا أدفعه

كل شهر من مصروفي ! ..

الشیطان : (هامساً) من حضرتها ؟!

الفيلسوف : زوجتي ... المصونة والجوهرة المكنونة ! ..

الشیطان : خذ راحتك معها ... إنها لن تبصرني ولن تسمعني ...

الفيلسوف : (لزوجته) طلباتك ؟! ...

الزوجة : طلباتي ؟! .. أنت تعرفها وتتقن تجاهلها .. ولكني أقسمت أن أحققها

كاملة .. شئت أو كرهت ! ..

الفيلسوف : بالقوة ؟!

الزوجة : أنت لا تريد أن نسوى أمورنا بالوسائل السلمية ! ..

الفيلسوف : أنا ؟! .. أنا الرجل المسلم ؟!

الزوجة : في الظاهر ... ولكنك في الباطن رجل مشاكس ... تريد فرض رأيك ...

الفيلسوف : ألا تريد أن يكون لي في البيت رأى ؟...

الزوجة : لا يا سيدى ... رأيك تضعه في كتبك ، أما في البيت فتضع نقودك !..

الفيلسوف : نقودى ؟! أأست أنت التي خطفت من يدي محفظة النقود هذا الصباح ، بعد أن خدشتني أظافرك الطويلة الملونة ، وذهبت إلى الحوانيت فاشتريت لنفسك الجوارب والعطور ، وعدت دون أن تشتري لزوجك المسكين قميصا واحدا يعوضه عن قمصانه القديمة الممزقة !..

الزوجة : أرايت ؟ كل ما تفكر فيه هو نفسك .. وكل ما تتمناه هو أن تسمم حياتي ...

الفيلسوف : وأنت ؟.. هل أضربت يوما واحدا عن تنغيص حياتي بطلباتك ولسانك !..

الزوجة : ولسانك أنت الذى يقطر بالسم !..

الشیطان : (هامسا للفيلسوف) أهذا هو الزواج ؟!..

الفيلسوف : نعم .. « عقبال عندك » !..

الزوجة : عدت تحرك شفتيك ؟..

الفيلسوف : أتريد أن التحكم أيضا في شفتي .. أليس لي الحق أن أكلم من أشاء ؟!..

الزوجة : ليس في الحجرة هنا غيرى ...

الفيلسوف : من أدراك ؟.. أتظنين أنه ليس في الكون غيرك أنت ؟..

الزوجة : وما دخل الكون ؟ إني أتكلم عن هذه الحجرة ؟ أفيها أحد ثالث ؟..

الفيلسوف : بدون شك .

الزوجة : ولماذا تبصره أنت ولا أبصره أنا ؟!..

الفيلسوف : وهل ذنبى أن أبصر أنا ما لا تستطيعين أنت أن تبصرى !؟
الزوجة : قلت لك ألف مرة خاطب بفلسفتك الفارغة هذه الناس فى الخارج ،
أما هنا فى البيت فخاطبنى بالعقل ..

الفيلسوف : وما هو العقل عندك أيتها المرأة !؟ ..
الزوجة : رأييت ؟ .. كل همك أن تشعرنى أن تفكيرك هو فى مستوى أرفع من
تفكيرى .. وأنتك ترى ما لا أرى .. تريد أن تسيطر علىّ بفكرك ..
ولكنك لن تسيطر علىّ أبدا .. إن لى شخصية لا يمكن أن تنطوى تحت
شخصيتك ..

الفيلسوف : أهذه الفكرة هى التى تثيرك !؟ ..
الزوجة : بكل أسف نعم .. وسترى الآن من منا الذى سيخضع الآخر .. إلى
أبصر الآن أكثر منك الشخص الذى معنا فى هذه الحجرة ..

الفيلسوف : تبصريه ؟ .. من هو ؟
الزوجة : الشيطان ! ..
الشيطان : (هامسا) كيف شمت رائحتى ؟ ..
الزوجة : (لزوجها) ألا تعلم المثل : ما اجتمع رجل وامرأة إلا كان ثالثهما
الشيطان ! ..

الشيطان : (هامسا) ليس دائما .. إنى هنا الليلة لسبب آخر ..
الزوجة : (لزوجها) والدليل على وجود الشيطان بيننا الآن هو أنه يوسوس لى
أن أختطف هذه المحبرة التى أمامك وأقذف بما فيها على رأسك ! ..
الشيطان : (هامسا للفيلسوف) يا للظلم ! أتصدق أنى أحرضها على شىء
كهذا !؟ ..

الفيلسوف : بل صدق .. إذا لم تسلم بدون قيد ولا شرط ! .. (تهمز المحبرة فى
يدها)

الفيلسوف : (للشيطان) ما رأيك ؟ ..
الشيطان : تسألنى رأيى !؟ .. وأنا الذى جئت أتمس رأيك !؟ .. رأسك هذا هو

الذى سيفكر لى فى منع الحرب !... (يهروول هاربا بإشارة وداع ..)
(المسرح المتنوع ١٩٥٦)

فى الشعر

وإن وراء الحرب منسى ودونها
مواقف تنسى عندهن التجارب
أرى ملء عينى الردى وأخوضه
إذ الموت قدامى وخلفى النوادب
ومن شرفى ألا يزال يعينسى
حسود على الأمر الذى هو عائب
ولست أرى إلا عدوا محاربى
وأخبر خير منه عندى المحارب
(أبو فراس الحمدانى)

* *

لن ينصر الدين الخفيف وأهله
من بعضه عن بعضه مشغول
تلهيبه صلصلة العوالى كلما
أهت أولئك قينة وشمول
(ابن هاني الأندلسى)

أوراق ضائعة

في السد العالي : إني حي

١

أبو سمبل أو خيوط الفجر

رمسيس : كل صباح في صباح
والنيل ما زال يجري عند أقدامى الثمان
والشمس تضيء وجوهى الثلاثة
وجهى الرابع طمسته كف الزمان
نفرتارى : أجل يا زوجى الجميل
إنه صباح واحد طويل والشمس تضيء وجوهى الأربعة
بقى لى وجهى الرابع لم يطمسه الزمان
لأنى أختفى تحت سماء ظلك
رمسيس : نعم هى الشمس فى الضفة الشرقية
تبدو من خلال التلال تحمل حنطة من ذهب
ويصبح أول قرد من أعالي معبدى
صبيحة النوى من أعلى الشراع :
سفينة مقبلة فى الأفق
تلمع بالرماح البيض
تهزم القراصنة السود
نفرتارى : وكل شىء من حولنا فى سبات
إلا النيل يغفى وهو يسير
وفى موجاته خلاخيل
ترى كالفضة وهى تلمس أرضنا قرب مواقع أقدامنا

— ١٠٧ —

رمسيس : نعم صباح واحد طويل
قائم دائما كالجبل
وأنا وأنت قطعة من جبل
وكل شيء من حولنا يزول
نفرتارى : النيل وحده يسير

حتى وهو يموت
أوزيريس المقطع إربا
كل قطعة فيه تنبت عشباً
رمسيس : من بلاد الشمال

حيث الشمس تترك ذهبها
فوق الرؤوس وتختفى
ومن بلاد الجنوب
حيث يخترق الشعاع العنب
ويلوح بشرة الزيتون
كلهم مقبلون كلهم مقبلون
نفرتارى : يقدمون إليك القرايين

صلوات الإعجاب
تفور كالحباب
في كؤوس العيون
في صباح واحد طويل
عمره آلاف السنين

* *

بمثل هذا الكلام كانا يتخاطبان ومنذا الذى يستطيع أن يؤكد أنهما لبنا
صامتتين طوال هذه القرون ؟! يبدو لى أنهما يعرفان عما حولهما أكثر مما
نتصور . لحت ذلك فى تلك العيون الصخرية . ومنذا الذى يستطيع أن

يؤكد أن العيون الصخرية أقل رؤية من عيوننا الزجاجية ؟
ما من شك عندى فى أن رمسيس وزوجته يريان كل شىء أمامهما .
وإن كنت أشك قليلا فى أنهما يفهمان كل هذا الذى يحدث اليوم قريبا .
إنهما قطعاً يريان المراكب تأتى تحمل أفواج المعجبين من الشمال
والجنوب . إن الإعجاب بهما شىء مألوف لهما من قديم . سواء يوم كانا
يتحركان بالجسم فى كيان من لحم ودم ، أو يعيشان بالروح فى تماثيل
ومعابد عبر الأحقاب . لإنهما فى كل صورة من صور الحياة موضع
إعجاب . هذا ما يعرفانه ويفهمانه جيدا . لكنهما اليوم فى أى سبيل
يشعران شعورا خفيا بشىء غير مألوف . إن الزوار الآن لا يحملان لهما
الإعجاب وحده .. فى تلافيف الإعجاب عاطفة أخرى غامضة لا
يعرفان بعد كنهها . غير أنها تتراءى أحيانا فى ومضات نظرات غريبة من
تلك العيون الزرقاء والخضراء والعسلية والسوداء . ثم ما هذا التهافت
والإقبال على هذه الزيارات اليوم بهذه اللفة وهذه الكثرة ؟

وهذه البواخر والزوارق .. وهؤلاء العمال والخيام ... وكل هذه
الأدوات والمعدات وقضبان الفسولاذ وكمرات الحديد ؟ ثم ما خطب
القرى المهجورة على الضفتين ، منزوعة النوافذ والأبواب ، قابضة فى
صمتها ، كأنها صقور محنطة منزوعة الريش ؟ علامات غريبة لا يفهمان
لها معنى ..

أكثر من ثلاثة آلاف عام وكل شىء يسير فى مجراه . فما الذى حدث
اليوم ؟ بالطبع حدثت أشياء كثيرة خلال تلك القرون الطوال . فقد
دالت دول وجاءت دول وتغيرت الديانات والملل . لقد استعرضا فى كل
زمن مختلف الوجوه والسحن . لكن شيئا واحدا لم يتغير : هو شعورهم
الراسخ بالاستقرار فى ذلك المكان : « أنا وأنت قطعة من جبل وكل
شىء من حولنا يزول » !.. نعم لكن .. ما الذى هز فيهما هذا الشعور
الآن ؟ ولنفرض أن العمال هناك تحدثوا بشىء ، فهل من الممكن لهما أن

يفهما المعنى الحقيقى لهذا الحديث ؟ قد يقال إن الإحساس بقرب وقوع شىء خطير أمر طبيعى . وخاصة عند أولئك الذين عاشوا طويلا حياة هادئة رتيبة . وهذا ما بدا فعلا بوضوح على وجه رمسيس . كنت أتأمل كل وجه من وجوهه فى تماثيله العديدة المتشابهة فأرى منه هذا التوقع . وعندما انصرف عنه الزوار خلف الدليل ، يشرح لهم تاريخه وأعماله وانتصاراته ، بقيت أنا وحدى معه وجهها لوجه . أسائل نفسى : أقول له أو لا أقول ؟ .. وتشجعت وقلت له : « نعم . سيحدث شىء . شىء عجيب لن تصدقه . لأنى أنا نفسى مندهش له ! » ..

وعندما خلا الجو للقراصنة السود ، لصصوص النور ، ونامت القردة أولاد الشمس فوق أفريز المعبد فى انتظار سفينة النهار ، لم يغمض لرمسيس جفن . هذا النائم على مجد القدم . بدأت توقظه أصوات تأتى من الشمال ، ضربات تدوى فى رأسه من معاول تشق الصخر فى أسوان . وهمس لزوجته قائلا : « أسمعين ؟ . أسمعين ؟ » وانطلق شبه تنهد دله على أن نفر تارى لم تكن أقل منه سهدا وقلقا وسمعا .

ومضى يخاطب نفسه : « أين يمكن أن نذهب ؟ أو يعقل أن نتحرك من موضعنا بعد كل تلك القرون ؟ والنيل أيضا ؟ حتى النيل ؟ ! » ولم تكن كلماته مفهومة حتى لنفسه .. ولكن الإحساس الداخلى يتكلم . لكن مهما تذهب بهما الظنون فإن هناك حدا عندهما للتصور . لقد تحققت فى عصورهما القديمة أعاجيب . ولكن فى إطار الطبيعة الموجودة . الجبل هو الجبل . والنيل هو النيل . كل شىء فى موضعه . الإنسان بعبقريته . والطبيعة بجبروتها . كل منهما يعمل فى نطاقه .

الإنسان يقيم المعابد والهيكل . وقد يحاكى الجبل فيصنع الهرم . أقصى قدرته أن يحاكى الطبيعة . ولكن المحاكاة اليوم لا تكفيه . إنه يغير الطبيعة نفسها وفقا لحاجته . فهو يصنع للجبل أقداما كى يتقل من مكان إلى مكان . وهو يضع حول النيل سياجا ، ويجعله بقرة داخل حظيرة ، تحلب له بالمشيئة . نعم . هذا النيل الهادر فى فيضانه العارم قلبه المصرى الحديث ، حفيد رمسيس ، إلى عصفور وديع مغرد بين قضبان قفص ، يغنى وقتما يراد له بأناشيد الخير والبركة والتماء . لكن هذا لن يبع رمسيس من الدهشة . وربما الغيرة والغضب والصياح : « أترى النيل قد شاخ حتى

يترك قياده لأولاده هكذا يفعلون به ما يشاؤون ؟ » . لكنه يعلم جيدا أن النيل لا يشيخ . إنه الشباب المتجدد والبعث الدائم . إذن هم الأولاد الذين تغيروا . وقد أدرك النيل الجبار أنه لن يستطيع مع مثل هؤلاء الأبناء أن يسير على هواه . لكن المدهش في الأمر أن النيل نفسه لم يضق بوضعه الجديد . لقد سمعه يقول هامسا : « حقا . حقا . إني شاب دائما . هذا صحيح . غير أنني كنت شابا ضائعا . لم تكن حريتي تلك هي الحرية . إنها كانت الضياع . إن الحرية ليست في مجرد السير على الهوى . الحرية ليست في تبديد الذات . اليوم أدركت الحرية الحقيقية . هي أن أسير ولا تنزلق مني خطوة في غير موضعها . هي أن أسيل ولا تضيع مني قطرة في غير نفع . يا أبنائي شكرا لكم ... شكرا لكم ... » .

٢

أسوان أو إعادة الروح

حوريس : انهض يا أوزيريس
أنا ولدك حوريس
جئت أعيد إليك الحياة
جئت أجمع عظامك
وأربط عضلاتك
وأصل أعضائك
أنا حوريس الذي يكون أباه
حوريس يعطيك عوننا لترى
وآذاننا لتسمع
وأقدامنا لتسير
وسواعدنا لتعمل

وها هي ذى أعضاؤك صحيحة

وجسدك ينمو

ودماؤك تدب في عروقك

إن لك دائما قلبك الحقيقى

قلبك الماضى

الميت : إلى حى . إلى حى .

تذكرت هذه الكلمات من « كتاب الموتى » وأنا واقف أتأمل ذلك النصب التذكارى الذى أقيم فى أسوان بمناسبة أول تفجير للجبل . أهو كان تفجيرا للجبل فى ذلك اليوم أو أنه كان تفجيرا للحياة ؟ تفجيرا للروح التى عادت إلى مصر الحديثة ... وقفت فى ذلك المكان الذى وقف فيه معبد الروح يشعل الشرارة ، واستعدت كلمات حوريس تلك .. وتذكرت عندئذ — وبالأدهشة — نص كلماتى التى كنت نشرتها عام ١٩٣٨ فى كتابى « تحت شمس الفكر » . إذ قلت فى ذلك الحين : « إلى دائما أو من بأن مصر لا يمكن أن تموت . لأن مصر منذ الأزل ظلت تعمل وتكد آلاف السنين لهدف واحد . مكافحة الموت . ولقد فازت مصر ببغيتها وكلمنا ظن الموت أنه انتصر قام حوريس من أبنائها يصيح : « انهض انهض أيها الوطن . إن لك قلبك دائما . قلبك الحقيقى . قلبك الماضى . » وإذا الموت يتراجع أمام صوت مدو من أعماق الوطن : « إلى حى . إلى حى . » .

نعم . هذا نص ما نشرته منذ أكثر من ربع قرن . واليوم من ذلك المكان فى أسوان رأيت وسمعت . كل عجلة تدور . وكل آلة تزأر . وكل محرك يهدير . كل السواعد وكل الأرجل والكواهل والعقول . كل شيء ها هنا يقول :

« إلى حى . إلى حى . »

وآلاف من أبناء جلدتى يمرون بى سراعا صامتين . يحملون الصخور فوق لوريات تنطلق كالقذائف فى أجواء الغبار . وينقلون الردم على صنادل تمرق فى الماء . ويهبطون كالتمل يثقبون الأنفاق . ويخلقون كالصقور بالرافعات إلى السماء . دوامات نشاط تتقاذفنى من كل جانب . وكلها صامته . لا صيحة ولا صرخة ولا حديث . ولكنه

عمل منطلق خاطف . إذا غفلت أو تغافلت لحظة عن موضوعي في الطريق ما أشعر إلا والعجلات تكاد تدوسني . ما من أحد لديه وقت لتحذيري . كل شيء يكاد يقول لي معاتباً موبخاً : تنح عنا فلا مكان هنا لمتفرج عابث أو عاطل غافل ... كان ينتابني — وهذا حقيقي — شعور بالخجل لمجرد أني متفرج بين هؤلاء العاملين . كدت أصبح بهم : شغلوني معكم في شيء . ولو حمل حصاة من الحصى ...
نعم . كل شيء متحرك في صمت . وكل صمت حولى في أسوان تنبعث منه أصوات تقول :

« إني حى . إني حى . »

٣

تحويل النيل أو تحويل التاريخ

« أمة أتت في فجر الإنسانية بمعجزة الأهرام .. لن تعجز عن الإتيان بمعجزة أخرى أو معجزات » .

عبارة ذكرني بها أولئك الذين سافروا قبلي إلى أسوان ، وكرروها لي قائلين : اذهب لترى بنفسك معنى عبارتك مجسداً ماثلاً للعيان ! ..
وسافرت .

وهناك جعلت أقول لنفسي مردداً : « نعم . هذه الأمة قد استطاعت . أخيراً . نعم استطاعت ... »

لكن الذى شغل فكري بعدئذ هو هذا السؤال :

« لكن كيف ؟ ولماذا ؟ » .

أترى الشرط الأساسى لقوتنا هو أن نحكم أنفسنا بأنفسنا ؟ . أن تكون لنا إرادة نابعة من أعماقنا ؟ . أن يقوم فينا من صلبنا من يعبر عن إرادتنا . بالتفكير والتنفيذ ؟ . إذن ما جاء في « عودة الروح » لم يكن مجرد حيال ! .. وهذا يدهشنى .

لكن الذى أدهشنا حقا أكثر من أى شىء هو المدى الحقيقى لتلك الكلمة الصغيرة التى نلفظها ببساطة : « الإرادة » . هنا حقا العجب !...
إن الذى يحرك الجبل اليوم ويحول النهر ليست الآلات والمعدات والخبراء . إنها الإرادة والعزم والتصميم .

إن الأدوات والآلات أجهزة صماء لا تدب فيها الحياة إلا بشرارة الإرادة .
وعندما وقفت أتأمل اللافتة المكتوب عليها : يا بناء السد لم يبق على تحويل مجرى النيل الخالد سوى كذا يوما — وكل يوم بالطبع ينقص يوم — هالنى المعنى المجسد لما يقال عن إرادة الإنسان التى تقف أمام إرادة الطبيعة ، وجهها لوجه . هذه المباراة الهائلة رأيتها رؤية العين .

وغدا عندما يجد رمسيس نفسه وقد حمل حملا من مكانه هو وزوجته ومعبده ووضع فى أعلى الجبل ، ويرى النيل الذى كان يداعب قدميه منذ القدم ، قد انقلب بحيرة عميقة عظيمة ، سوف يعجب ولا شك ويخاطب إلهه « بتاح » المرسوم على حائط معبده يقدم إليه القرابين :

— أخبرنى مَنْ من الآلهة فعل بنا هذه الأفاعيل ؟!..

وسوف يحار « بتاح » فى الجواب .

— ما الذى جعل الأرض التى أقمنا فوقها طويلا تهتز تحت أقدامنا ؟!

وليس هذا هو المهم لو درى . إن دهشة رمسيس الحقيقية هى عندما يعلم أن تحويل النهر واهتزاز الأرض ليس أكثر من مظهر خارجى مادى لما هو أعجب وأروع : شعب بأكمله يتحول تفكيره ويتغير مجرى تاريخه .

إن التاريخ الإنسانى يتغير بتغير خط السير المعتاد لتفكير المجتمع .

ونحن الآن عند ملتقى الطريق لتغيير فى نظرتنا إلى القيم والمثل .

لقد بدأنا نرى الحقائق القديمة تهتز عند أقدامنا .

ولعل أول حقيقة ثابتة شعرنا باهتزازها هى الإيمان بقوة الامتلاك كوسيلة تأمين فى

الحياة . التأمين الفردى العائلى بالميراث فى المال والعقار .. كل ذلك قد انهار .

تغير تفكيرنا اليوم وبدأنا نرى التأمين فى « العمل » . ورثوا أولادكم قدرة على

(فى الوقت الضائع — ج ٢)

العمل . الأمان والضمان منذ اليوم فيما نعمل لا فيما نملك .
تلك هي إحدى الحقائق الكبرى التي تحول إليها إيماننا اليوم .
هنا إذن الأهمية الحقيقية لتحويل النيل . إنه تحويل في التفكير . وتحويل في التاريخ
تبعاً لذلك .

وعندما عدت أدراجي جعلت أتصفح الوجوه طول الطريق . وأنظر إلى أمواج
شعبنا في تدافعه وانطلاقه وأقول :

« نعم . هذا صحيح . إنه فعلاً يتحول وينطلق . » بل إنى أرى أمامي شيئاً أكثر
من التحول والانطلاق : التشكل . إنى أكاد أرى في كتلة هذه الجموع التي يتألف منها
شعبنا كيف سيكون شكله غداً . وذكرني المنظر بما كنت أبصره على ضفتي النيل وأنا
أطلع من نافذة الزورق البخارى في طريقى إلى أبى سمبل . رأيت بعض الصخور ناتئة
في التلال وقد كادت تتخذ أشكالاً آدمية . صحت في دهشة : إنها تكاد تشكل
نفسها !

الشعوب أيضاً في بعض مراحلها تكاد نبصر فيها بأعيننا بوادر التشكل .
وهذا ما ألمح الآن في الطريق كل يوم وأقول : نحن نتشكل . وإنى أرى اليوم
بوضوح شكل أمتنا غداً .

أنا والأهرام قبل ٣٠ عاما

والأهرام في السنة السبعين من عمرها

هذا المقال كتبه الأستاذ توفيق الحكيم منذ حوالي ٣٠ عاما ، يوم ٢١ يناير ١٩٤٥ ، وكان عمر الأهرام وقتئذ ٧٠ عاما . كان احتفال جريدة الأهرام بمرور مائة عام على مولدها مجرد حلم عابر تحدث عنه رئيس تحريرها في ذلك الوقت ، أنطون « بك » الجميل ، وعندما زار توفيق الحكيم الأهرام مهتبا بعيد الميلاد السبعين للجريدة قال لرئيس التحرير مداعبا : سأكتب إلى جريدتنا هذه مهتبا عندما تبلغ المائة من عمرها . وكان رد الحاضرين — كما هو مسجل في مقدمة المقال — أن الحكيم « يسوف » وأنه « إذا ضمنا لهذه المؤسسة ثلاثين سنة جديدة . هل نحن ضامنون لكل منا مثل هذا الأجل : أنت لتكتب ونحن لنهنيء ؟ » .

وحسنت المناقشة عندما طلب الحاضرون من توفيق الحكيم « بخياله بعيد المدى » أن « يتصور » الأهرام وقد بلغ عمره مائة سنة . وكتب الأستاذ توفيق الحكيم المقال . ومد الله في عمره حتى عاش احتفال الأهرام بعيدته المئوي .

ولقى الجميع ربهم باستثناء كاتب المقال — الأستاذ توفيق الحكيم — والفنان صاروخان الذي رسم صورة « متخيلا » الحكيم وهو يكتب المقال في العيد المئوي . وفيما يلي : مقال توفيق الحكيم « الحلم » ، وتعليق له من « الواقع » . كان المقال الأول بطلب من أنطون بك الجميل رئيس تحرير الأهرام في عام

بعد ٣٠ سنة

والأهرام في السنة المائة من عمرها

كتب الأستاذ أنطون بك الجميل رئيس تحرير الأهرام بهذه المناسبة ما نصه :
« أتمت » الأهرام « في أول هذا الشهر السنة السبعين من عمرها ، كما أشرنا إلى ذلك في حينه . وكان الأستاذ الكبير توفيق الحكيم بين زوار « ندوة الأهرام » في تلك الليلة . فقال : سأكتب إلى جريدتنا هذه مهثا عندما تبلغ المائة من عمرها ... فقال الحاضرون : وعلام هذا التسويف ؟ فإذا ضمنا لهذه المؤسسة ثلاثين سنة جديدة ، هل نحن ضامنون لكل منا مثل هذا الأجل .. أنت لتكتب ونحن لنهنيء ؟ .. » .

وقال بعضهم : الأمر أبسط من ذلك ، وخيال توفيق الحكيم بعيد المدى . فليتصور إذن أن « الأهرام » ، وهي اليوم بنت السبعين ، قد بلغت المائة ، وأنه ، وهو اليوم ابن الثالثة والأربعين ، قد بلغ الثالثة والسبعين . وليكتب اليوم ما كان سيكتبه بعد هذه الحقبة من الزمن ... » .

فراقت الفكرة الأستاذ الحكيم — وهو مولع بالابتكار — فقام وكتب الرسالة الآتية بتاريخ يناير سنة ١٩٧٥ (وقد حالت المعركة الانتخابية دون نشرها في حينها) :

القاهرة في أول يناير ١٩٧٥ ..

صديقي الجليل أنطون الجميل « بك » (وقد تكون « باشا ») :
اسمح لي ، وأنا الآن شيخ جاوز السبعين ، أن أنهئ « الأهرام » الغراء بيلوغها اليوم قرنا من عمرها الحافل المجيد . وإن حياة « الأهرام » هي في الحقيقة حياة مصر في أجل مراحل تطورها السعيد . وإن تاريخها هو تاريخ كل رجل ، وكل حدث ، وكل خطوة ، وكل حركة ، وكل نبضة ، وكل صحوة ، وكل فكرة نبتت في بلدنا وهبت في شرقنا .

إنها لي كائن حي عزيز . في عمرها طويت عمري وفي صدرها أفرغت ما في صدري .

إنها كتاب حياتي الذي يضم صفحات شبابي ، وخطرات كهولتي ، وخلجات شيخوختي .

إن أصابعي المرتجفة الآن تقلب أعداد « الأهرام » لثلاثين سنة خلت ، فأحس فرحا يدب في كياني المتهدم كما تدب الحياة الخضراء في الكرمة العتيقة ...

نعم لقد عشنا ذلك العهد معا يا صديقي العزيز ، وكنا مع أصدقائنا نسهر في حجرة مكتبك ونسمر ، ونتابع ما يجري في البلد من أحداث نعقب عليها أحيانا جادين ، وأحيانا هازلين ، نرسل ضحكاتنا البريئة الصاخبة في جوف الليل ترن رنين أقداح الراح بغير لثم ...

يا له من عهد !.. لقد كانت السياسة وقتئذ مسلاة الناس ، وكانت الانتخابات النيابية ملهاتهم . يضيعون فيها كل مالههم وعقولهم ، ويهتمون بها اهتمام الإنجليز بلعبة كرة القدم . ما من صديق لنا ، إذا كنت تذكر ، لم يصب بداء السياسة . لقد كانت « البرلمانات » يومئذ مثل كرات « التنيس » يطيح بها كل قابض على المضرب والصولجان . لعل جيل اليوم يدهش لذلك . فنحن الآن — « الأهرام » في عامها المائة — نعيش عصرا أصبح فيه الشعب هو حامل المضرب ، والحكومات هي الكرات . إن الأمر كما ترى لم يتغير كثيرا . والذي تغير هي اليد التي تطوح وتقذف ...

نحن لسنا من الشيوخ الرجعيين ، ولا نظن أني ساخط على عصرنا الحاضر ، آسف على زوال زماننا السالف . فمشكلة الحكم لا يحلها قرن من الزمان ولا قرون . إنها المشكلة الخالدة . إنها من تلك العضلات التي خلقت بغير حل .. هنالك حجرات مغلقة لن يجد لها البشر مفاتيح . سر الحياة من بينها . وكذلك سر الحكم . لأن الحكم كالحياة : توازن بين القوى . إن ظهور الحكم الصالح مثل ظهور الحياة : توازن يتم في فترة بين العناصر ، ثم لا يلبث أن ينفرط وتعود العناصر إلى التفكك والتضارب والتصادم والنضال . إلى أن ترجع مرة أخرى إلى الانتظام والتوازن فترة من الفترات

وهكذا دواليك .

لا تقل إني شيخ متشائم .. إني يا صديقي القديم على ما عهدتني منذ ثلاثين عاما : رجل هادئ مبتسم للحوادث والأحداث . بل إني أستطيع أن أقول لك إني راض عن مجتمعنا الحاضر ... فالشعب قد نال فيه على الأقل حظا وافرا من النضج السياسي والثقافي صقل شخصيته وأبرزها قوة التكوين واضحة الاتجاه . لقد وجد الرأي العام الذي طالما انتظرناه ... وها هي ذى « الأهرام » تطبع اليوم مليون نسخة تنفذ جميعها كل صباح ، عدا الملحق الخاص من مجلتها الأسبوعية المصورة .

إن الشعب اليوم يقرأ ويعرف ويريد وهو يقدر لذاته قيمة ، ويحرص على كرامته الآدمية . كل فرد في الأمة اليوم يدرك أنه لا معنى لحياته إذا لم يمنحه عمله فيها مستوى من العيش خليقا بمواطن متمدن . هذا جميل حقا . ولو ذكرت حياة فلاحنا في الماضي لرضيت عن حاضرننا بكل ما فيه من عيوب .

على أن الذى يدهشنى هو تشبث كل فرد بحريته الشخصية إلى حد لم يخطر لنا على

بال ..

ولا بأس أن أكشف لك أيها الصديق القديم عن جانب من حياتي الخاصة .. ألا تذكر قولك لى ذات ليلة منذ ثلاثين عاما أنك لا تظن أنى سأتزوج بعد أن تجاوزت الأربعين ؟ .. حقا لقد كنت حصيفا فى رأيك يومئذ ... ولكنى تزوجت مع ذلك بعدئذ . وصرت أبا لفتاة هى اليوم فى الخامسة والعشرين . وقد عنيت بتربيتها وتثقيفها على النحو الذى يرضينى . وإنى لمعجب فعلا بذكائها وطاعتها ومحبتها لى .. ولكنها على الرغم من ذلك تجمع أحيانا وتنفر وتحيد عما رسمته لها من اتجاهات ، وتحاورنى وتداورنى بمنطق عجيب يعجز عن تقديره تفكيرى العتيق . إنها رفضت كل من تخيرت لها من أزواج أكفاء . ووقعت فى غرام « بهلوان » يمشى على الحبل فى أحد ملاهى « السيرك » المعروفة . وإنها لترجو منى أن أوافق على هذا الزواج .. لأنها تتحدث عن الحب كأنه الأساس الوحيد لكل حياة زوجية فى عصرنا الحديث . وإنها تزعم لى أن ذلك دليل لنضج الشخصية فى الإنسان . وإن الزواج المبني على الحب هو وحده الزواج الجدير بفرد حر فى مجتمع راق . وهى تسوق لى حجة بارعة : زواجى غير

الموفق بأمها .. الواقع أنى لم أجعل الحب أساسا للزواج ... ولقد كانت تلك غلطة كبرى كما قالت أمها ، وكما قلت أنا أيضا .

إنى كما تعلم أعيش اليوم بمفردى كما عشت دائما من قبل . ولكن الوحدة فى مثل سنى الآن مريرة ... آه أيها الصديق العزيز ، إنى أغبطك : إنك تعيش دائما مع « الأهرام » . تلك الصحيفة التى اقترن اسمك باسمها من قديم كما يقترن اسم الزوج بزوجه . إنها تطالعك كل صباح بوجهها المشرق المتجدد فتحس أن حياتك هى الأخرى تشرق معها وتتجدد . وتنظر إلى بياض ورقها فتنسى بياض شعرك . إنها تكبرك بقليل ولكنك أعطيتها كل حياتك .. لطالما قلت لى إنك كنت تفضل الانفصال عنها والتحرر منها وتكرس حياتك لنفسك تنفقها كما يحلو لك فى أى أرض شئت ولكنك لم تستطع . لأنك تحبها . ولأنها تحبك . إنها تشدك من أذيك كلما تحركت ، وتجلسك على مقعدك الدائم فى حجرة مكتبك . لأنها تريد منك أن تنظر فى وجهها كل صباح ..

أهنتك بهذه الزوجة الوفية ، الوفية لك ولمصر وللشرق . وأرجو منك أن تبلغها تهنتى بها يبلوغها سن المائة ، وهى لمثلها سن الشباب ، وسوف يهتئها التاريخ يبلوغ المائتين ثم المئات ...

توفيق الحكيم

واليوم ..

واليوم ما هو رأيي فيما قلت وتنبأت منذ ثلاثين سنة ؟ .. إلى الآن أرجع بفكرى لأحاول تذكرت ما فات ، كما كنت فى الماضى أمد خيالى إلى الغد محاولا رؤية ما هو آت ... لقد كنا فى تلك الليلة .. ليلة أول يناير ١٩٤٥ مجتمعين فعلا فى ندوة الأهرام كما قال رئيس تحريرها وقتئذ أنطون الجميل فى تقديمه لخطابى ... لقد كانت ندوة تضم شخصيات البلد من كل صنف ولون ... منهم الوزراء وأحيانا رؤساء الوزارات أثناء

التقاعد ، ومهم رجال الأحزاب المختلفين ، ومنهم الشعراء والأدباء ، بل أيضا مشاهير المحامين والمهندسين والأطباء ... منهم الزائر الدائم المنتظم ، ومنهم الوافد المتردد من حين إلى حين .. عقول مصر كلها كان لا بد لها أن تمر يوميا وأن تصادف في ندوة الأهرام ... وما كان العدد يزيد مع ذلك كل ليلة على العشرين ، فحجرة أنطون الجميل ما كانت تتسع لأكثر من ذلك العدد . وكان هو يجلس إلى مكتبه يباشر عمله الصحفي في حضور المجتمعين ، وهم يسمررون ويتناقشون في صخب أو هدوء على حسب الأحوال . وهو مشغول عنهم بعمله ، ويشارك أحيانا في الأحاديث بفكرة طارئة أو بضحكة لنكتة عابرة ... كانت له مقدرة على التركيز في العمل وسط هذا الجمع الصاخب . إلا إذا احتاج الأمر إلى تفرغ خاص فإنه يتركنا لحظات إلى حجرة صغيرة ملحقة بمكتبه ، بها جهاز تلفزيوني للمكالمات المهمة والسرية ... وكنا نحن أعضاء الندوة لا نبدأ افتتاحها إلا قبل منتصف الليل بساعة أو ساعتين لنتيح له وقتا يصرف فيه شؤونه ، ونجلس نحن في مقهى بار اللواء المواجه لمبنى الأهرام حتى تحين ساعة الندوة . وكان مقهى بار اللواء ، باسمه المنسوب إلى جريدة الزعيم مصطفى كامل ، مشهورا برواده من رجال السياسة والصحافة والأدب . والعجيب في ذلك العهد أن اختلاف الانتماء الحزبي واحتدام المناقشات بين كل حزب لم يكن يمنع من لقاء الجميع في ندوة واحدة ... كان هناك تفريق بين الخصومة السياسية والخصومة الشخصية ...

فإذا دار حديث في السياسة كان من الطبيعي أن يعصف الجوبالنقاش الحزبي . فإذا انقلب الحديث إلى موضوعات الشعر والأدب والفن ونحو ذلك فإن الجوب يصفو بين الجميع على اختلاف ألوانهم الحزبية وكأنهم أبناء أسرة واحدة : أسرة الثقافة بمعناها الرحب ...

لذلك ، ما أن فتح في تلك الليلة باب الحديث في عمر الأهرام ، وما بقى له من أعوام ليلبلغ المائة ، حتى هدا الصخب المحتدم حول المعركة الانتخابية التي كانت وقتئذ قائمة ، وجعل الحاضرون يتصورون ما سوف يكون الحال بعد ثلاثين سنة ...

وهكذا اتجهوا نحوى بأبصارهم يطالبوننى أنا بالتخيل ... وتخيلت وكتبت ما تخيلته فى صورة خطاب مى إلى رئيس تحرير الأهرام أنطون الجميل بك .. لم يكن قد نال الباشوية بعد .. وقد نالها فعلا بعد ذلك .. أما بقية التنبؤات فهى أمام قارئ اليوم ، له أن يقلب فيها النظر ليرى ما تحقق منها وما لم يتحقق .. أما فيما جاء من تخيلات عن حياتى الخاصة فقد كنت فى ذلك الوقت عزبا لم أتزوج بعد ، ولا ألمح فى أفق حياتى ما يشير بزواج ولذلك جاء التنبؤ خيالا مشوبا بالمرارة والتشاؤم ...

أما بعد ... فقد شاء الله تعالى أن أعيش لأرى الأهرام فى عيدها المئوى بالواقع لا بالخيال ... مكررا لها التهئة ، وأنا حزين النفس إذ أقرأ عبارة أنطون الجميل عما قاله الحاضرون فى تلك الندوة :

« ... إذا ضمنا لهذه المؤسسة ثلاثين سنة جديدة ، هل نحن ضامنون لكل منا مثل هذا الأجل ، أنت لتكتب ونحن لنهني ؟ » ..

ولقد ذهب بالفعل إلى رحمة الله أنطون الجميل ومعه أغلب الحاضرين ، كما ذهب ذلك الماضى كله بخيره وشره كأنه حلم ... وبقي فيمن بقى معى المصور صاروخان الذى تخيلنى بهذه الصورة عندما أكون اليوم ... ولم يكن من تقاليد الأهرام وقتذاك نشر التصوير الكاريكاتورى ، ولكن رئيس التحرير اضطر كما قال إلى خرق هذا التقليد لاستحالة نشر صورة فتوغرافية لى بعد ثلاثين سنة ! ...

والآن ماذا أقول ؟ لم يعد عندى شىء أقوله غير كلمة واحدة : كل شىء إلى زوال ومصر العزيزة هى الباقية ..

توفيق الحكيم

عودة إلى الشباب

سئلت أثناء وجودى فى باريس هذا السؤال :
 « إذا أردت أن تكتب اليوم من جديد « عودة الروح » و « عصفور من الشرق »
 و « أهل الكهف » .. كيف تكتبها ؟ » .

سؤال يبدو كتلك الأسئلة السطحية التى تلقى علينا من حين إلى حين لمجرد التسلية أو التفكهه . ولذلك لم آخذه كثيرا على سبيل الجد .. ولكن عندما خلوت إلى نفسى وأمعت النظر فى السؤال وحاولت الإجابة وجدت تفكيرى قد طرق أبوابا وتخطى أعتابا ودخل فى دهاليز طويلة من أزمنة وعهود . وذلك شأن الأسئلة التى تبدو بسيطة بديهية فإذا عرضناها على التفكير والتحليل ظهرت أغوارها البعيدة ، مثل السؤال عن : ما هو الماء وما هو الهواء !.. فالإجابة الدقيقة عن المسائل الأدبية ومؤلفاتها تقتضى أيضا التحليل العلمى أى الموضوعى للظروف التى نشأت فيها . والتحليل العلمى يستند دائما على كلمة واحدة هى « لماذا » ؟ أى السبب ويستبعد كلمة « يجب » أى الرغبة . فعندما نلاحظ مثلا أن قلب الإنسان فى الجانب الأيسر ، فإن الكلام يكون علميا وموضوعيا إذا قلنا « لماذا » هو كذلك ؟ وهو يكون بعيدا عن الأسلوب العلمى إذا قلنا « نرغب أو نود لو كان فى الجانب الأيمن » . وهذا أن أصبح بديها فى مجال « العلم » الباحث عن الحقيقة . أما فى مجال « الأدب والفن » فإن الخلط لم يزل موجودا . ولذلك لابد من التفريق الواضح بين الناقد والباحث . فالناقد وخاصة إذا كان النقد صحفيا أى موقوتا بزمان محدد ومكان معين له أن يقول « أرغب وأود وأفضل » أى أن نلجأ إلى أسلوب شخصى أو توجيهى . أما الباحث وخاصة إذا كان البحث غير موقوت بالحاضر المباشر أى بأشياء وأعمال استقرت فى التاريخ الأدبى أو الفنى أو الاجتماعى ، فإن أسلوب الرغبة أو التفضيل أو التوجيه أى الأسلوب الشخصى يصبح لا محل له ولا مبرر ، ولابد عندئذ من استخدام أنماط الأسلوب

العلمى الموضوعى التحليلى . أى لماذا ؟ .. كان الأمر كذلك ؟ ..
وهذا التفريق بين الأسلوبين والمهمتين يجب أن يكون واضحا فى أذهاننا عندما
نواجه القضايا الأدبية والفنية والاجتماعية .

من أجل هذا كانت الإجابة الدقيقة الجادة عن ذلك السؤال المتعلق بمؤلفاتى القديمة
التي نشرت منذ أكثر من أربعين عاما تقتضى منى استخدام الأسلوب الموضوعى
التحليلى — أى السؤال بكلمة « لماذا » ؟ لماذا كان الأمر كذلك ؟ ولماذا كتبت هذه
المؤلفات أصلا ؟

ثم لماذا كتبت على هذا النهج ؟ وكما هو الحال فى دراسة القلب مثلا ووجوده فى
الجانب الأيسر فإن علينا أن ندرس أسباب هذا الوجود أولا وضروراته ومهمته ونشأته
واتصاله ببقية الأعضاء والأجزاء . فإذا صنفنا العمل الأدبى على أنه رواية أو
مسرحية ، فمن واجبنا إذن أن نحلل الظروف التاريخية والأدبية والاجتماعية التي
اقتضت ظهور هذا العمل فى ذلك الزمان والمكان ، بصفته التي ظهر بها . ذلك أن
الأدب أو الفن إذا كان صادقا فلا بد أن يكون وجوده بالصفة التي ظهر بها مرتبطا
بضرورات التطور الحضارى للبيئة التي وجد فيها .. فما هو التطور الحضارى الذى
كان قائما عند ظهور تلك المؤلفات القديمة ؟ ... يجب إذن أن نحلل حالة مصر فى
عشرينيات هذا القرن . وهذا عمل يطول شرحه ويحتاج إلى دأب وتخصص وتفرغ ،
ومكانته فى رسائل الجامعات ودراسات أساتذتها وبحوث المؤلفين والنقاد الجادين .
ولكن يكفى هنا أن أشير إشارة سريعة إلى ما علق بذاكرتى فى هذا المجال . فمصر فى
عشرينيات هذا القرن كانت خارجة من ثورة ١٩١٩ . وقد جاءت هذه الثورة على أثر
مطالبتها المحتل البريطانى باستقلالها . ذلك أن مصر كانت تابعة اسميا للدولة العثمانية ،
وإن كانت عمليا خاضعة للاحتلال البريطانى . فلما قامت الحرب العالمية الأولى عام
١٩١٤ وانحازت الدولة العثمانية إلى جانب أعداء بريطانيا ، وكان حاكم مصر الخديو
عباس الثانى قد ذهب إلى إسطنبول للاستجمام وإظهار الولاء للباب العالى العثمانى ، كما
كانت العادة فى ذلك العهد ، فقد اعتبرته السلطات البريطانية المحتلة منحازا هو أيضا
إلى أعدائها ، وقامت بوضع مصر كلها تحت حماية بريطانيا العظمى رسميا طالما الحرب
(فى الوقت الضائع)

قائمة . وانتهت الحرب في أواخر عام ١٩١٨ فكان من الطبيعي أن تسأل مصر عن مصير الحماية البريطانية وعن وضعها السياسى ، بعد هزيمة الدولة العثمانية في هذه الحرب . واستفسرت بريطانيا عن معنى السؤال وعما تريده مصر بعد رفع الحماية البريطانية ، هل تريد العودة إلى التبعية العثمانية ؟ وهنا أعلنت مصر صراحة عن أمنيتها ورغبتها في عدم تبعيتها لأحد ولا لجهة . إنما هي تطلب الاستقلال التام . فلما رفضت بريطانيا ثارت مصر ثورتها . وحاول المحتلون والخصوم إقامة العراقيل المعروفة بزعمهم أن في مصر طوائف وأقليات دينية تقتضى الحماية ، ولكن مصر أثبتت بالفعل وحدة مصر المتينة ، وأن مصر هي كلها مصر ، ولا يوجد في مصر غير كتلة واحدة هم المصريون الذين لم يعرفوا في تاريخهم الطويل أى تفريق أو تمزيق بسبب اختلاف في الدين . وعانى الهلال الصليب في راية واحدة مرفوعة في وجه المحتلين . وذهل الاحتلال البريطانى ، ولكنه جعل يشكك متجاهلا متسائلا :

وما هي شخصية مصر وهذا الشعب الذى يسمى بالمصريين ؟! . وعندئذ كان على الفكر والأدب والفن في مصر الإجابة على هذا السؤال .. وأخذ كل في مجاله البحث عن كيان مصر والتنقيب في جذورها والكشف عن شخصيتها ، فظهرت المحاولات العديدة في الفن والأدب والفكر والسياسة والاقتصاد لتجلية الشخصية المصرية المستقلة وإبراز معالمها وملاحمها . وأخص بالذكر هنا على سبيل المثال لا على سبيل الحصر ما كان منها متصلا اتصالا مباشرا بالإرادة المتعمدة المباشرة لربط مصر بجذورها القديمة :

مثل تمثال « نهضة مصر » لمختار ، ولحن سيد درويش « أنا المصرى كريم العنصرين بنيت المجد بين الأهرامين » ، و « عودة الروح » مصدرة بعبارة من « كتاب الموقى » لمصر القديمة « انهض يا أوزوريس أنا ابنك حوريس جئت أعيد إليك الحياة .. » .. إلخ .. إلخ .

وقد فهم البعض خطأ أنها دعوة إلى الفرعونية ولم يكن الأمر كذلك مطلقا . إنما كان المقصود هو نفخ التراب عن الشخصية المصرية لإظهار ملامحها المميزة وكيانها المستقل في وقت ينكر فيه الخصوم والمحتلون حقها في الاستقلال .. وشخصية مصر أو

غيرها من البلاد والشعوب والأمم تماثل شخصية الفرد الواحد . فمعرفة شخصية فرد تقتضى تتبع مراحل عمره منذ وجوده على الأرض . فمن يزعم أنه يستطيع أن يعيش بشخصية كاملة التكوين بحذف مرحلة من مراحل وجوده وتاريخه بإلغائها من ذاكراته ، فإن هذا الفرد فاقد الذاكرة والوعى لجزء من تاريخ وجوده ويعتبر في نظر الطب مريضاً عقلياً . . كان إذن شغلنا الشاغل في ذلك العهد هو إبراز شخصية مصر المتكاملة المستقلة بذاتها في وقت كان الأعداء فيه والمحتلون ينكرون هذه الشخصية إلى حد كان تمثيل مصر السياسى أمام العالم يقوم به عنا سفير إنجليزى ، ولم نتخلص من هذا الوضع الظالم إلا بعد ثورتنا عام ١٩١٩ وإرغامنا المحتل أن يعترف بشخصية مصر ، فأنشئت عندئذ السفارات المصرية مستقلة عن تلك السفارات البريطانية . . إذن فكان من الضروري والطبيعى أن يكون الفكر والأدب والفن في هذه المرحلة وهذه الظروف مردداً ومؤكداً للشخصية المصرية بطريق مباشر أو غير مباشر . .

ولكن كان من نتيجة هذا الغوص والتنقيب عن جذور الشخصية المصرية والاهتمام بماضيها ونقض التراب عن أصوله أن فهم خطأ أيضاً أن المقصود هو بعث الماضى بأكفانه ليعيش بيننا كما كان في سالف الأزمان . . وظهر بيننا السلفيون والرجعيون الذين يريدون العودة بعجلة الحياة إلى الوراء . وهنا كان من الطبيعى والضرورى أن ينشأ في الأدب والفن في تلك الظروف عمل مثل « أهل الكهف » يمثل أهل الماضى وقد بعثوا في مجتمع جديد ليعيشوا فيه بأفكارهم القديمة ومشاعرهم السالفة ، فلم يجدوا مكانهم في هذا المجتمع الذى اعتبرهم أشباحاً ولم يقبلوا كمعاصرين معاشين . . بل كثرات ينظر إليه باحترام وتبجيل ، دون أن يسمح له بأن يتدخل في حياته بنظراته ومثله القديمة فيعرق انطلاقة الحياة وتطورها . . إذن لم يكن اختيار قصة أهل الكهف بالذات من بين قصص القرآن اختياراً عفويًا غير ملتزم وإلا كانت قصة يوسف مثلاً أكثر إمتاعاً . . ولكن الاختيار هنا لأهل الكهف كان اختياراً طبعياً عضوياً ومرتبطة بقضية مجتمع في حالة تجديد فكرى وتطور حضارى .

ثم دخلنا في أواخر الثلاثينيات وقد تبلورت شخصية مصر واستقرت في الأذهان ، كما ظهر بوضوح اتجاه التجديد الفكرى والتطور الحضارى عندنا بالنظر الجاد المدروس

في تراثنا القديم واستخلاص كنوزه الخالدة وعرضها في الأثواب الملائمة للعصور الحديثة ، على ضوء مناهج البحث الجديدة ، واستلهام روح التراث وجوهره لتجسيده في قوالب معاصرة .

وعندئذ ظهرت قضية أخرى هي قضية الشرق العربي كله وحضارته الأصيلة في مواجهة الحضارة الأوروبية السائدة ، فكان من الطبيعي والضروري كذلك أن ينشأ في الأدب والفن الروائي في ذلك الوقت عمل مثل « عصفور من الشرق » يطرح القضية من وجهة نظر الشرق في مواجهته لحضارة أوروبا . ولم تكن هذه أول مرة تحدث فيها هذه المواجهة فقد سبق أن حدثت في القرن الماضي لرفاعة الطهطاوى . مع هذا الفارق وهو أن رفاعة الطهطاوى واجه الحضارة الأوروبية ومصر لم تكن قد استيقظت تماما ولم يكن الوعي لشخصيتها قد تبلور تماما . وكذلك الشرق العربي كله . بينما كانت أوروبا في ذلك القرن التاسع عشر في أوج عزتها وسلطانها الحضارى الذى لم تشبه بعد شائبة شك . أما « عصفور من الشرق » فقد ظهرت ومصر قد بلورت شخصيتها وعرفت اتجاهها الحضارى ، بينما أوروبا وقد خرجت من الحرب العالمية الأولى جريحة مضعضة بدأت تشك في مستقبل حضارتها كما ظهر في كتابات الكثير من مفكرها .. وكانت هذه هي القضية المطروحة وقتئذ أمام الشرق العربي : « مادام الأمر كذلك في الغرب نفسه فماذا نأخذ وماذا ندع ؟ » .. وكان على رواية « عصفور من الشرق » عرض القضية لا في صورة محاسن أو مساوئ بغير حدود لكل من الحضارتين الشرقية والغربية ، ولكن في صورة المحاسن والأضداد لكل منهما بروح العدل والإنصاف ، لا بروح المحاباة المغرقة أو التحامل المرير ، على قدر الإمكان ، إذ كان أيضا على الأدب والفن في ذلك الوقت رفع الروح المعنوية لمصر الشارعة في النهوض و « عودة الروح » إليها ، وللشرق العربي وحضارته المتخاذلة أمام الحضارة الأوروبية الساحقة ..

والآن نعود إلى السؤال المطروح : إذا أردت أن تكتب اليوم من جديد « عودة الروح » و « عصفور من الشرق » و « أهل الكهف » كيف تكتبها ؟ .. لعل الصعوبات تبدو الآن واضحة بعد أن عرفنا تلك الخلفيات والأرضيات التى

نبئت فيها تلك الأعمال . ذلك أن عبارة السؤال « تكتب اليوم من جديد » معناها البحث أولا عن الأرضية الجديدة . هذا من حيث « المضمون » ، ولكن عبارة « كيف تكتبها » تحمل أيضا معنى البحث في « الشكل » ... وكما أن المضمون له خلفية وأرضية ، كذلك الشكل . فأصالة هو أيضا تأتي من تطوره المرتبط بتاريخ النوع وبيئته الأدبية والفنية ومن طبيعة الأديب والفنان ، ومن جو بلاده صافيا كان أو غائما ومن جغرافيته جبليا كان أو سهلا ، صحراويا كان أو مكتنفا بالغابات .. ولقد كنت في باريس يوم ولدت السورالية وظهرت المذاهب الروائية الجديدة التي تتسم بالتعقيد أو بالإغراب ، كما أضنانى التفكير والبحث عن أسلوب لي ، وانتهى بي الأمر إلى أن الأسلوب في الفن مثله في المشي . ومن تكلف أسلوبا خاصا في مشيته تعثر ، ومن ترك نفسه على طبيعته سار . ولذلك لم ألتفت إلى المذاهب والأساليب عندما شرعت في الكتابة ، وأمسكت بالقلم وتركت طبيعتي تقودني .. هذه الطبيعة التي تمتد جذورها في الأرض والبيئة والتاريخ والجو ونحو ذلك من المكونات لوجودنا ، دون أن أتعمد تذكر كل ذلك ساعة الكتابة وإلا انحرفت إلى التكلف . يجب أن أمشي مشيتي الطبيعية وكفى ، لا أن أذكر وأضعه في حسابي وتخطيطي ساعة المشي ، وإلا أصبح المشي كله عملية متصنعة تدعو إلى السخرية .. إذن لو كتبت تلك الأعمال القديمة من جديد اليوم فإني أعتقد من حيث « الشكل » أني لن أغير هذا المنهج : وهو ترك طبيعتي تقود قلمي ... وليس معنى هذا إنكار التطور أو التجديد . فالطبيعة نفسها تطور دائم وتجديد مستمر .. حتى في وظائف الأعضاء وخلايا الجسم ... وطبيعتي الخاصة بالذات تبغض الجمود وتحب التجديد . ولكن هناك فرقا كبيرا بين التطور الطبيعي وتكلف التطور ، وبين التجديد الذي تحتمه ضرورات تاريخية واجتماعية وفنية وبين التجديد الذي تدفعه نزعات مظهرية وتظاهرية ..

من حيث « الشكل » إذن لا توجد بالنسبة لي مشكلة . أما من حيث « المضمون » فسوف أجد نفسي أمام مشكلات معقدة . فالأرضية هنا اليوم ليست ثابتة . فنحن في أوائل القرن كنا أمام قضايا واضحة . ليست لمصر وحدها ولا للشرق العربي وحده ، ولكن للعالم كله . فبعد ثورة ١٩١٩ أصبحت هذه القضايا فيما يخص

بلادنا أكثر وضوحا ، فأمكن للأدب والفن رؤيتها وحصرها . أما بعد الحرب العالمية الثانية فقد تزلزلت الأرض تحت أقدام العالم كله . واهتزت قلاع العقائد والمبادئ . ووضعت في ميدان المنازعات المسلمات الرواسخ . وتغيرت جغرافية الأمم والشعوب وعدلت الخرائط وظفرت بالاستقلال والحرية السياسية شعوب لبشت تحت نير القهر والاستعباد طيلة قرون . واتضح أن الاستقلال السياسي الذي ظفرت به الشعوب ليس هو الاستقلال الاقتصادي الذي لم تظهر به . وظهر أن الاستقلال الاقتصادي ليس مطلباً للشعوب فقط بل هو أيضا مطلب للقارات . ورأينا قارة مثل أوروبا التي كنا نعتبرها سيدة العالم أصبحت تخشى على استقلالها الاقتصادي وربما أيضا السياسي من عملاقين هائلين عن يمين وعن يسار . كما اتضح أن التقدم العلمي الذي أدى إلى انقسام الذرة التي كانت في المفهوم العام جوهرًا فردًا غير قابل للانقسام ، قد أدى إلى انقسام في كل ما كنا نعتقد أنه جوهر فرد في مجال القيم الإنسانية والاجتماعية والسياسية .. فمثلا « الحرية » و « الديمقراطية » لم يصبح لها مفهوم واحد : كما كان الحال فيما مضى حيث كان يكفي أن تذكر كلمة « الحرية » ليفهم الجميع المقصود ، لأن « الحرية » كانت قيمة إنسانية لها كيان واحد . أما اليوم فهذه القيمة انقسمت إلى كيانات . فالحرية في المجتمع الرأسمالي هي حرية الفرد في الحركة والتعبير والعمل . وهي في المجتمع الشيوعي حرية البروليتاريا في أن لا تستعبد طبقة أخرى . وكذلك « الديمقراطية » انقسمت إلى ديمقراطيتين .. ديمقراطية تقبل وجود المعارضة كأساس في نظام حكمها ، وديمقراطية ليس في نظامها هذا الأساس باعتبار أنها قائمة على طبقة واحدة هي الشعب كله ، وأن المعارضة لا تكون إلا في المجتمع الطبقي .. ولم يقف الأمر اليوم عند هذا الحد من انقسام جوهر القيمة التي كانت واحدة ، بل إن المعاني والمواقف التي كانت في الماضي ثابتة أو بطيئة الحركة أصبحت الآن في عالم الصواريخ والطائرات النفاثة سريعة التحرك والتغير .. فالولايات المتحدة التي حاربت النازية تتغير وتحول إلى مناصرة الأنظمة الشبيهة بالنازية (في أمريكا الجنوبية مثلا) . ولقد جاء في كتاب لكاتب سياسي اسمه « دانييل كوستيل » أن الأمريكان يفضلون معسكرا نازيا منظمًا على معسكر الديمقراطيين الألمان .. كما ظهر كتاب للعالم السوفيتي « أندريا ساحاروف » أبو القنبلة الهيدروجينية بعنوان

« بلادى والعالم » ذكر فيه أن العامل فى أى دولة متقدمة فى البلاد الرأسمالية يرفض أن يعمل بالأجر الذى يتقاضاه العامل السوفيتى ، لأن متوسط الأجر الشهري لهذا العامل السوفيتى هو ٦٠ روبلا إلى ١١٠ روبل ، والحد الأدنى من حيث القدرة الشرائية يعادل ٣٠ دولارا ، فى حين أن متوسط هذا الأجر للعامل الأمريكى هو من ٦٠٠ دولار إلى ٧٠٠ دولار ، مما يتيح له مستوى عاليا فى المعيشة . وكان الرد على ذلك إدانة هذا المجتمع ووصفه بأنه « مجتمع الاستهلاك » أى مجتمع مادي يهبط بقيمة « الإنسان » . واتجه المجتمع السوفيتى إلى الجانب المعنوى والذهنى ففتحت أبواب الفنون الراقية للشعب كغذاء رئيسى ، إلى حد أصبحت فيه محطات المترو تحت الأرض شبيهة بالمتاحف تعرض فيها للشعب لوحات من الفن الرفيع ، وكأن قيمة الإنسان قد وزنت بغير الميزان المادى ، وكأن الشعار أصبح الآن هناك : « ليس بالخبز وحده يعيش الإنسان » .. أترى الشيوعية التى قامت على المادية تتحول إلى القيم الروحية !! بل إن التغير والتحول فى الاتحاد السوفيتى قد شمل أيضا إجازة المؤلفات التى كان يعتبرها منذ ثلاثين سنة من الأعمال البرجوارية الممنوعة ، فقد نشرت الوكالة السوفيتية لحقوق التأليف قائمة المترجمات الأجنبية التى طبعت ونشرت فى الاتحاد السوفيتى بكميات كبيرة جاء فيها أن ما يقرب من مليون نسخة قد بيعت من قصة الفرسان الثلاثة لـ « ألكسندر دumas » ، كما أن كتب « فرسواز ساجان » من بين المطبوعات الرائجة فى الاتحاد السوفيتى اليوم ..

كل هذه التحولات والتغيرات السريعة التى تحدث فى المواقف والمبادئ والأفكار فى وقتنا الحاضر تجعل من الصعب ملاحقتها واعتناقها ، إذ ما تكاد القدم تقف على أرض حتى تتحرك هذه الأرض من تحت القدم وتتخذ موقعا آخر ، تبعا لحركات الفعل ورد الفعل التى تزاولها القوى العظمى المسيطرة على عالم اليوم الذى أصبح كرقعة شطرنج وإسعة المدى . ولم يصبح أمام الإنسان سوى أن يختار جانبا من الجوانب ويترك نفسه تتحرك بحركته . فإذا أردت كما جاء فى السؤال أن أكتب اليوم من جديد « عودة الروح » فكيف أكتبها ؟ وبأى مضمون ؟ إن هذا يدعونى أن أسأل نفسى أولا : عودة الروح لمن ؟ وأى روح أقصد ؟ لقد كان معنى الروح عندنا فى

(فى الوقت الضائع — ج ٢)

العشرينيات هو رفع روح مصر كما ذكرت وتجلية شخصيتها وتقوية معنوياتها لتكافح في سبيل استقلالها . وقد تم لمصر ذلك . وإذا أخذت بأقوال جيل الشباب الذى قرأها ويذكر تأثيرها فيه ، وخاصة عندما تسلم ذلك الجيل مصائر مصر ، فإن « عودة الروح » قد أدت مهمتها ، بخيرها وشرها . وكذلك الحال بالنسبة إلى « عصفور من الشرق » .. لا بد إذن من مضمون جديد لمثل هذه الأعمال التى لا تقاس على أساس قيمتها الأدبية والفنية وحدها ، بل أيضا وهو الأهم على أساس أثرها وتأثيرها فى مجتمعها ومساره ومصيره ، أو على أساس النتائج التى ترتبت على ظهورها كما هو الحال فى « يوميات نائب فى الأرياف » ، وعلاقتها بإنشاء وزارة للشئون الاجتماعية فى ذلك العهد بمصلحة خاصة للفلاح .. وهو مضمون لم يزل حيا بارزا فى كثير من أعمال الأجيال الأدبية اللاحقة ولن يستنفد أغراضه أبدا .. كذلك مضمون « أهل الكهف » لم يزل حيا ، ليس بالأعمال الأدبية ، ولكن بالمجتمع نفسه الذى تظهر كثيرا فيه قوى السلفية والرجعية أشد مما كانت وتحتاج إلى كفاح جديد .. على أن الأعمال الأدبية المؤثرة فى المجتمع لم يعد من اليسر صدورها عن الكاتب الفرد كما كان الحال فى العشرينيات والثلاثينيات ، فقد تكونت الجماعات والتكتلات والمذاهب والأرضيات التى ينتمى إليها ويقف عليها الكتاب فى سبيل الأهداف التى يؤدونها أو يخاصمونها ، فإذا كانت كتابات الكاتب متجهة إلى تقدمية أو رجعية فإنه يجد نفسه فى الحال تحت راية انتماء تبرزه وتقويه وتمده بالأسلحة الفكرية المعدة إعدادا مقنعا ، وبذلك تصنف أعمال الكاتب تصنيفا مذهبيا ، ويصبح التأثير فى المجتمع تأثيرا جماعيا ..

ولنعد إلى السؤال : كيف أكتب اليوم من جديد تلك الأعمال التى كتبت فى العشرينيات ونشرت فى أوائل الثلاثينيات ؟ إن الإجابة قد اقتضت كما رأينا دراسة المجتمعين : المجتمع الماضى والمجتمع الحاضر .. ولكن السؤال لم يوضح لى حالتي الشخصية عند إعادة الكتابة من جديد لتلك الأعمال ؟ هل أقوم بذلك وأنا على حالتي اليوم من الشيخوخة ؟ أو على افتراض أنى عدت إلى الشباب . شباب المجتمع الحاضر فى هذا العالم المعاصر ؟ إذا كانت الإجابة أن أبقى شيخا كما أنا الآن فما جدوى ذلك ؟

ولماذا لا يقوم شاب بذلك ؟ وما قيمة الشيوخ إذن في البشر كما في النبات إذا لم يلقوا في الأرض بذورا تنتج أشجارا نضرة تتحمل مسئولية الصالح لزمانها ؟ أما إذا كان المطلوب أن أعود افتراضا إلى الشباب فإني أقول لكم : ومن أدراكم لو عدت شابا أن أعود إلى حمل القلم ؟ لماذا لا تفترضون أني وقد ظفرت بالشباب لا أنتهز الفرصة هذه المرة وأعيش حياة « الصرمحة » ؟؟؟ عوضا عن حياة « الصرامة » ... صرامة الفكر المتعبة المجهدة .. مستقولون لي على أن تحتفظ بطبعك الذي ولدت به .. آه لعنة الله على هذا الطبع !.. إذن سأسلك نفس الطريق وأحمل القلم ومتاعبه في عالم جديد غريب غير مفهوم بعد .. هو العالم المنفتح على القرن الحادى والعشرين .

الحضارة والحوار

لست أدري لماذا لم أكتب شيئا عن الفترة التي لحقت فترة اشتغالي في سلك القضاء ؟.. لقد عملت بعد ذلك في وظائف مختلفة ، لى فيها من الذكريات ما كاد يضيع ، وكاد العمر يضيع قبل أن أدون بعضها ... وها هي ذى صفحة منها تذكرني بها الظروف ... لقد انتقلت من عملي بالريف إلى وظيفة في وزارة المعارف العمومية (التربية والتعليم) . كان ذلك في أوائل الثلاثينيات — في عام ١٩٣٣ بالتتمام — ولعل شبح الشقاء في الأرياف ، والحياة المهيمة فيها ، ظل يلازمني بعد استقرارى في القاهرة ، فنشرت مقالا ألفت فيه نظر الدولة إلى ضرورة الاهتمام بشئون الريف والمجتمع ، وخشيت أن تتعلل الدولة وتعتذ بمعجز الميزانية عن إنشاء وزارة خاصة لمثل هذه الأمور ، فلجأت إلى التيسير واقترحت في ذلك المقال إلحاق هذه المهام الجديدة بوزارة الأوقاف ، للانتفاع بمواردها في هذه النواحي الإصلاحية ، على أن يطلق عليها اسم « وزارة الأوقاف والحياة الاجتماعية » ..

ومضت الأيام .. وتغيرت الحكومة .. وجاءت حكومة جديدة تلقفت الفكرة وتشجعت وأنشأت لها وزارة خاصة باسم : « وزارة الشؤون الاجتماعية » .. ونص في قرار إنشائها على أن تقسم إلى مصالح وإدارات منها : « مصلحة للفلاح والتعاون » ، و « مصلحة للعمل » ، و « إدارة للإرشاد » ، وهكذا ... وكنت في ذلك الحين مديرا لإدارة التحقيقات بوزارة المعارف ، فنقلت بنفس درجتى مديرا لإدارة الإرشاد في الوزارة المنشأة .

كان ذلك على ما أذكر في شهر أكتوبر من عام ١٩٣٩ .. وما كدت أتسلم الإدارة الجديدة حتى تكشفت لى حقيقة الوضع ، وبدا الأمر كما توقعت .. الميزانية ضعيفة .. والوزارة الجديدة قد قامت في الهواء بلا نقود ... وإذا نحن فيها جميعا منقولون بالانتداب ، وكل منا متروك لنفسه ، في حيرة من أمره ، لا يدري أين يجلس ، ولا

كيف يعمل .. وكان اختصاص إدارتي على الورق ، كما جاء في القرار ، يشبه اليوم اختصاص وزارة الإرشاد أو الإعلام أو الثقافة أو كلها مجتمعة .. فالمسرح والسينما والإذاعة والمعارض والموالد والفنون بأنواعها وهلم جرا .. كل ذلك يدخل في اختصاصي ... ولكن المشكلة كيف أجمع وألمم هذه الأشياء ، وهي متفرقة في وزارات مختلفة .. فالمسرح كان يتبع وزارة المعارف ، والسينما تتبع وزارة الداخلية ، والموالد وزارة الأوقاف ، والإذاعة مستقلة ، والمعارض والفنون تتبع هيئات أهلية وهكذا .. كيف أنشئ إدارتي الجديدة إذن من هذه الأشتات ؟ .. سألت العون عند وزيرى فوجدته هو أيضا في حيص بيص .. ولم يعين له أحد وكيلا للوزارة ، واكتفت الحكومة بتعيين سكرتير عام مؤقتا ، وهو الآخر لم يكن يعرف له رأسا من قدم .. وانتهى بي الأمر إلى أن قررت الاعتماد على نفسي ، وذهبت أبحث عن اختصاصي في كل فج عميق من فجاج الدواوين .. وكانت كل جهة من تلك الجهات تتبرم بطلي .. ولما طال إلحاحي ، جعلت كل جهة من تلك الجهات تلقى إلى بأكوام من الملفات والدوسيهات والأضابير وهي تقول : « هذا هو اختصاصك ، تفضل استلمه » .. فأجمع هذه الأكوام وأضعها في عربة حنطور على نفقتي وأذهب بها إلى إدارتي ... لقد تحملنا كثيرا من العناء ، وتعرضنا إلى كثير من السخرية ، وأصبحنا موضع تندر من الناس والصحف ونحن نؤسس هذه الوزارة الحديثة التي لم يكن لها مثال نحتذيه في تاريخنا ، ولا في تاريخ أى بلد من البلاد التي نعرفها ... وأخيرا استقر بنا الأمر على وجه من الوجوه ، وبدأنا نتوسل ونستعطف ونتسول ، إلى أن وضعت لنا شبه ميزانية مستقلة .. وبدأنا نفكر في أوجه النشاط الممكن .. وكان من ذلك أن رأينا إنشاء مجلة خاصة بالوزارة .. وكانت بالضرورة تتبع اختصاصي وإدارتي .. وهنا نشأت لي متاعب جديدة لم تكن في الحسبان .. رأينا أن يكون لهذه المجلة رئيس تحرير يتفرغ لها من بين الموظفين الأدباء .. واستكتبنا لها الأقلام المشهورة في كل اتجاه ومجال .. فكان يكتب فيها سلامة موسى بأفكاره الجريئة المتحررة ، كما كان يكتب فيها محمد الهياوى الأديب الإسلامى المعروف ببلاغة أسلوبه العربى وأفكاره المحافظة ... واعتدت في كل صباح وأنا أتناول فنجان قهوتي ، أن أرى رئيس التحرير يدخل على ليطلعنى على سير

الأمر ... وفي ذات يوم دخل واضعا يده على رأسه قائلا :
— الصداع ... الصداع ... لم أعد أطيق ولا أحتمل ... لا بد أن أقول لك ...
قلت له :
— اهدأ وقل لي ... ما هو الموضوع ؟...
قال :

— سلامة موسى ومحمد الهياوى ... أنا في صداع دائم منهما ... أرجوك
أنقذنى ... ابحث لي عن حل ...
قلت له :

— ماذا جرى ؟. اشرح لي الموضوع بدون انفعال ... فهدأ قليلا وقال :
— الموضوع باختصار أن كل يوم يأتي عندى محمد الهياوى يطعن في سلامة
موسى ، فإذا خرج دخل سلامة موسى يطعن في محمد الهياوى ... وكل منهما يقسم
لي أنه سيكف عن الكتابة إذا لم يمنع الآخر منها .. أى لا بد أن نخرس أحدهما كي يكتب
لنا الآخر ، وأن نستغنى عن واحد منهما ونستبقى الآخر بمفرده ... ماذا أفعل بين
هذين الكاتبين المحترمين ؟... وماذا يكون الحل في هذه المشكلة ؟!
قلت له مهونا ميسرا :

— أهذه مشكلة عويصة ؟!.. أنا أحلها لك .. إذا جاء إليك أحدهما فأرسله إلى
هنا ... وانصرف ... وفي اليوم التالى أرسل إليّ حسب الاتفاق سلامة موسى ...
فدخل يبادرنى بقوله :

— اختاروا بينى وبينه ...

فتجاهلت وقلت :

— من تقصد ؟

قال :

— هذا المدعو محمد الهياوى ... أيعقل أن تستكتبوا في مجلتكم التى تدعو إلى
الإصلاح الاجتماعى ، هذا المتخلف البدائى ، صاحب العقل المغلق ، الذى يعيش
بأفكار مضى عليها أكثر من ألف عام ...

قلت له بهدوء وابتسام :

— نحن نستكتبه من أجلك ...

فبدت عليه الدهشة وقال :

— من أجلى أنا ؟!

قلت :

— طبعاً .. من أجل أن تقوم برسالتك على خير وجه .

فقال مستغرباً :

— ما هذا الكلام ؟!

قلت له :

— ما هي رسالتك ؟ .. أليست هي إمداد الهياوى وأمثاله بأفكارك الجديدة ؟ .. ولكي تضمن اطلاعه على أفكارك يجب أن يكون موجوداً هنا بجوارك ... وجوده ضرورى حتى تستطيع أنت أن تقوم بمهمتك .. ولو كانت كل العقول والأفكار مثل عقلك وفكرك فما الضرورة لكتابتك ... أنت تكتب لأمثال الهياوى ... فأنت موجود لأنه هو موجود ... فدعه يعرض أفكاره القديمة ، وحاول أنت أن تصلحها بأفكارك الجديدة ...

فأطرق قليلاً وبدأ عليه الاقتناع .. وقال بلهجة مترددة :

— أتظن مثله يمكن أن يصلح ؟!

قلت له :

— رسالتك هي إصلاح العقول ... وليس عليك أن ينصلح فلان أو لا ...

قال :

— نحاول ...

وخرج ... وقد هدأت نفسه ...

وبعد يوم ، جاءنى محمد الهياوى يصيح :

— هذه كبرى الكبائر وقمة المهازل والمبازل ! .. تستكتبون فى مجلتكم الرسمية ،

وفى بلاد إسلامية هذا الزنديق المتحلل المدعو سلامة موسى ؟ ... هذا كفر مبين ..

والله .. والله .. لن أكتب فيها حرفا بعد اليوم إذا تركتم هذا الشخص يكتب بجوارى ..

قلت له :

— اجلس واهدا قليلا ... واسمع رأيي ... أنت رجل حجة في الدين ولك أسلوب عربى مبين ... وإذا لم تكن رسالتك هي إلقاء نور الإيمان في صدور الزنادقة ، فلماذا تكتب إذن ؟ .. نحن نستكتب سلامة موسى إلى جوارك حتى يستطيع نور إيمانك أن يصل إليه وينفذ إلى قلبه ...
— أهذا قصدكم ؟...

قلت :

— بدون شك .. وأنت خير من يعرف أن رسالات الرسل إنما قصد بها هداية الضالين ... ولو كان كل الناس مهتدين لما كان هناك لزوم لنزول الرسل والأنبياء ...
قال :

— هذا صحيح :

قلت على الفور :

— إذن يجب أن يكون إلى جوارك سلامة موسى كي تهديه ...
فقال وهو يهز رأسه :

— والله هذا لن يهديه ألف نبي ...!

قلت له :

— أنت ما عليك إلا أن تكتب والهداية من عند الله ...

قال :

— صدقت ... ولكنه يكابر ويجادل

قلت :

— جادله أنت أيضا ... ولتكن المجادلة بالتي هي أحسن ... إن الإسلام ، كما تعلم يعترف بالجدل ولا ينفيه .. ولا يشترط إلا أن تجادلوا بالتي هي أحسن ، أى بغير عنف ولا فحش ...

قال مصادقا :

— حقا .. تلك هي آداب المجادلة في الإسلام ...

. قلت له :

— هذا إذن دليل على أن المجتمع الإسلامي الحقيقي كان يعرف رحابة الصدر ، ولا يعرف الإرهاب والإكراه والحقن لآراء الآخرين ...

قال مسترسلا :

— هذا حق .. ولو أراد الله أن يجعل الناس أمة واحدة وفكرا واحدا لفعل ... ولكنه — سبحانه وتعالى — عدد الأمم ونوع الأفكار ...

قلت مضيفا :

— ومن تنوع الأفكار واختلاف الآراء واحتكاكها وتعانقها تتوالد الحقائق المضيئة ... وقد تجد عند سلامة موسى بعض ما ينفعك ويرضيك ، وقد يجد هو عندك بعض ما ينفعه ويرضيه ... فلا يوجد عند أحد الشر كله أو الخير كله ... فليحاول كل منكما أن يعرف ما عند الآخر ... أما الإصرار على الابتعاد عنه والجهل به فهو العمى .. ولا يصح لإنسان عاقل أن يفتأ عينيه يديه حتى لا يرى ما عند الآخر .. ادرس ما عند الآخرين وتأخير منه ما ينفعك ...

قال :

— وهل عند بلشفيكي ملحد مثل سلامة موسى نفع أو خير ؟! (كلمة بلشفيكي وبلشفية كانت الشائعة وقتئذ أكثر من كلمة ماركسية أو شيوعية) ...

قلت له :

— يا أنت ذا تجهل ما كان يجب أن تعلمه ... إن سلامة موسى ليس ملحدا ، بل هو مسيحي مؤمن .. وقد أهدى إلى كتابا نفيسا مجلدا أحسن تجليد .. هذا الكتاب قد يدهشك أن تعلم أنه « الكتاب المقدس » ... وكان يجب أن أهدى إليه بدوري نسخة فاخرة من القرآن الكريم ...

قال :

— عجيبة ...!

قلت :

— أ رأيت ؟ .. إن الجهل بالآخرين آفة الآفات ... ولعلك تعرف أن من خيرة
المسيحيين من درس القرآن ليتنتفع ببلاغته ، ومن المسلمين من قرأ التوراة والأنجيل
ليتنتفع بعبرها ، دون أن يكون في ذلك مساس بعقيدة طرف من الأطراف .. يجب أن
نفتح العقول لكل هواء ونور ولا نخشى شيئا ... فالصحة كل الصحة ، لا يمكن أن
تكون بغلق النوافذ ... إن أول ما يقوله طبيب لمريض هو : افتح النافذة ليدخل لك
الضوء والهواء ...

قال بعد إطراق :

— على كل حال ... نحاول ...

وانصرف ...

وجاءني رئيس التحرير بعد أيام ، فبادرته بقولي :

— هل زال عنك الصداع ...؟

فقال باسم :

— زال والحمد لله .. كل واحد منهما يأتي حاملا مقاله فأتسلمه منه ويمضي في
هدوء ... ماذا حدث ...؟
قلت له :

— حدث أن كل واحد منهما عرف حقه وحق غيره في التعبير عن رأيه ... أنت
أيضا عليك أن تعرف شيئا ...
— ما هو ؟

— هو أن تذكر كل من يكتب عندك أن يكون الجدل والحوار بين الجميع في إطار
الاحترام المتبادل ، بعيدا عن المهاترات ، مرتفعا عن التجريح الشخصي ، وإلا فقدت
حرية الرأي والتعبير الكثير من قيمتها وجلالها .. آداب الحوار والجدل أن يكون ذلك
بالتي هي أحسن ...

* * *

تحضرنى من صور الحوار والجدل كذلك ما كان يحدث أمامى في جلسات

المحاكم ... كنت ألاحظ ذلك المشهد العجيب : مشهد طرفين متناقضين تمام التناقض ، طرف يطلب رأس متهم ، وطرف يطالب ببراءته .. أ يوجد تناقض أكثر من هذا ؟ .. ولكن الحوار والمساجلة والمجادلة بين الحجج والأدلة هي التي تشد اهتمام الجمهور الحاضر في الجلسة .. جمهور يبدو عليه أنه يشارك بفكره ويزن بعقله وهو يصغى إلى شهود الإثبات وشهود النفي ، أى إلى الشيء وضده .. وكأنه يشعر في قرارة نفسه بأن مداركه العقلية تتسع برؤية الأشياء من زواياها المتعددة ، إذ لا شيء يضيق الذهن غير رؤية الشيء من زاوية واحدة ...

* * *

لعل من أمتع الكتب وأنفع المطالعات التي أذكرها في صباي ، ما كان للجاحظ في « المحاسن والأضداد » ... كتاب علمني رؤية الشيء وضده .. ولم يزل باقيا عندي حتى اليوم بجلدته القديمة ، وعليها بخطي وبالحبر القديم اسمي مع عبارة « سنة أولى — فصل أول » .. من المدارس الثانوية بالطبع .. ولعل ملازمة هذا الكتاب لي طوال هذا الزمن ، إنما ليذكرني دائما بدرس الأول : إن لكل عملة وجهها الآخر ، وإن المعرفة لا تتم إلا بالإحاطة بما نراه من الأشياء وما لا نراه ، ما نحبه منها وما نكرهه .. لأن مزاوله المعرفة الشاملة لمختلف جوانب الأشياء هي الطريق إلى العلم بمفهومه الحديث .. ولا عجب إذا رأينا العلم بهذا المفهوم قد عرفته ومارسته الحضارة الإسلامية في ازدهارها الخلاق ، وقد وجدت فيها عقول فاحصة ، متحررة ، متحركة متفتحة على كل جوانب المعرفة ، مثل عقل أبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ البصري .. إن كتابه « المحاسن والأضداد » ، ما هو عندي في حقيقة الأمر سوى نوع آخر من « الجدلية » جسدت ، ربما لأول مرة ، في نطاق الصور الأدبية .. لكن تبقى له بعد ذلك مهمة أخرى هي أنه يغرس في النفس الإدراك العميق بقيمة الجدل والحوار في صنع التفكير الإنساني في مجتمع مؤهل لبناء حضارى ...

الملوك والرؤساء في دولة الشعر

كان احتفال هارون الرشيد بالشعراء قد جعل منه أحسن متذوق للشعر وخير راوية له .. وكانت صداقة شاعر الألمان جوته لشارل أوجست ، دوق فيمار قد جعلت هذا العاهل يقرض الشعر .. ولم أكن أتوقع في عصرنا الحاضر المملوء بالمشكلات المعقدة أن يفرغ رئيس دولة لقرض الشعر إلى أن تسلمت في عام ١٩٧٨ ديوانا مطبوعا مرفقا به هذا الخطاب من سفيرنا في مالطة آنذاك الأستاذ صلاح الدين عابدين هذا نصه :

« يسعدني أن أبعث رفق هذا بنسخة مترجمة إلى اللغة العربية من ديوان الشعر (قبس المصباح) الذي قام بتأليفه الدكتور أنطون بوتيجيج ، رئيس الجمهورية المالطية . وقد أهدى لسيادتكم هذه النسخة بخط يده ورجاني إرسالها لكم .. » .
ثم تسلمت بعد ذلك بتاريخ ٢ / ١٢ / ١٩٧٨ من نفس السفير خطابا آخر هذا نصه : « إلحاقا بكتابنا رقم ٢٥٨ في ١٤ / ١٠ / ١٩٧٨ المرفق به نسخة من كتاب « قبس المصباح » أتشرف بالإحاطة بأن المستر أنطون بوتيجيج رئيس الجمهورية المالطية قد استفسر مني أكثر من مرة عما إذا كان هناك أى تعقيب أو تحليل لمقتطفات الشعر في كتابه ، وأنه يسعده أن يتلقى آراء سيادتكم حول الأفكار التى تضمنها كتابه المذكور .. » .

وعلى الرغم من هذين الخطابين فقد ظلت هذه النسخة لهذا الديوان بعيدة عن نظرى لظرف قاهر : هو أن تاريخ وصولها في ١٤ / ١٠ / ١٩٧٨ كما جاء في خطاب السفير كان قبل وفاة ابني الوحيد بعشرة أيام . فلقد لفظ النفس الأخير في ٢٤ / ١٠ / ١٩٧٨ وكنت أعيش هذه الفترة في مأساة الصراع بين المرض والموت .. واليوم وقد من الله تعالى على بالصبر والامثال لقضائه سبحانه ، فقد وقعت يدي على نسخة الديوان ، وقرأت في المقدمة أن الشاعر رئيس الجمهورية قد ابتلى هو أيضا بفقد

عزيز عليه هي زوجته بعد أن تركت له ثلاثة أطفال .. وكتب في ذلك شعرا نشره في ديوانه ، مس قلبي بصدق إحساسه وجمال تعبيره ، وأبدأ بقصيدته تلك التي عنوانها « وفاة الرفيقة » ، فقد ابتليت أنا أيضا بوفاة الرفيقة بعد أن تركت لي ولدا وبناتا ، ولم يلبث الولد أن لحق بها بعد عام .. وهذه هي القصيدة :

« وفاة الرفيقة »

طائران — ذكر « الضفنج » وأنثاه
كانا يخلقان في غابة جميلة
وبينا هما يجنحان في سعادة بين الأشجار
كانا ينقضان لالتقاط الديدان لإطعام فرخيهما
وفجأة سمعت طلقة ... الشظايا لطخت الأوراق بالوحل
لقد أصيبت أنثى الضفنج في صدرها
وهوت ميتة في مياه النافورة
تمزق قلب الزوج .. ومع ذلك فقد كان
عليه أن يعود وحيدا إلى العش
... ..

ثم ما جاء في قصيدته « في ميدان سان مارك بفينيسيا البندقية » :
حالما وصلت إلى « فينيسيا » ذهبت إلى الساحة أمام كنيسة « سان مارك » وفورا
أبصرني الحمام استقبلني مرحبا ؟! ابتعت بعض الذرة وأخذت في إطعامه . وحطت
حمامة بيضاء على كفي . خاطبتني : لقد عرفتك منذ ثلاث سنوات . ولقد أخذت
مع زوجتك صورة تذكارية في هذا الميدان . ولقد أكلت ، إذا كنت تذكر ، من
يدها .. فلماذا تأتى اليوم وحيدا ؟؟ أخبرني .. ماذا حدث ؟ رفعت بصرى إلى
السماء لأفهمها بالإشارة أن زوجتى قد رحلت إلى الجنة لتلحق بملا السعادة الأبدية .
عند هذا ابتسمت الحمامة بعذوبة . وهزت رأسها كأنها أرادت أن تقول لى : إيه لطانا

التقيت بها هناك في عليين ...
وقال أخيرا في قصيدته :

« المقبرة »

أنت مدفونـه في فؤادي
بمقبرة الذكرىــــــــــــــــات
وأنا بين الحين والآخر
آتي لأزور ضريحك
وأنتسحب وحيدا

هذه النبضات الشاعرة النابعة من قلب رجل عمله في الحياة السياسية .. والسياسة
شيء لا قلب له ، لا بد أن تكون وليدة طبيعة شعرية لا مسيل إلى كبتها بأحداث الحياة
وما يموج فيها من أضواء وألوان وأحاسيس . إنها طبيعة الشاعر وكفى .. وهكذا
وصفها في قصيدته :

« شاعر »

إنسان متميــــــــــــــــز
هكذا خلقنيــــــــ الله
أحس أكثر من الآخرين
بروعة السماء
بهجة زرقاء
وأكثر من الآخرين أحس
بروعة الأحزان

ثم ما جاء في قصيدته :

« المزمار »

الحياة بأفراحها وأحزانها
 جعلتني شاعرا
 تماما مثلما يدا الفنان الصنّاع
 تنقبان الخشب وتحفرانه
 لتصنعن مزممارا
 لقد توجعت
 لأن فؤادي ليس جامدا كالخشب
 إنني يحس الألم
 ولكن يا لها من سعادة عندي
 عندما أحس
 بأنامل الشعر
 تداعب أوتار قلبي
 وأشعر بأنفاسه
 تهب عليّ

وعندما يدع رجل الدولة كل ما في يده من جاه وسلطان ليهرع إلى الشعر عندما
 يسمع ندائه ندرك سطوة الشعر ، ونفهم طبيعة الشاعر الحق .. وهذا ما نجده في
 قصيدته التي عنوانها :

« إلى الشعر »

يا شعر .. عندما تدعوني
 يدع فؤادي كل شيء جانبا
 وينطلق من صدري

باسطاً أجنحته البيضاء
فيختسرق نور الشمس
ما بين البحر والسماء
كأنه يمامة جزلى
ويأتى .. ليقعد فى أحضانك
فى مكان لا أعرفه
من دنيا الإشراق الرائعة
أيها الشعــــــــــــــــر
وبعد أن تكون قد لاطفت فؤادى
يعود .. ويدخل صدرى ثانية
لكى يواصل تجرع مرارة الحياة !

وفى ختام ديوان السياسى الشاعر المفعم بأجمل الأضواء والألوان فإنه يؤسفنى
عجزى عن عرضها كاملة ، كما نأسف دائماً لعجز اللغة أى لغة عن ترجمة الشعر ،
مهما يبلغ اجتهاد المترجمين . فالشعر ضوء ونغم ينطلق من منبعه طليقا ويضيع أكثره
إذا تدخل الوسيط .. إنه المصباح الذى يضيئ بنور الفكر والحب والإيمان ... ولقد
قالها رئيس الدولة الشاعر فى قصيدته الموجزة المضيئة :

« المصباح »

قالت الشمس ..
إنى أكاد أغرق وأزول
من سيضى بعدى؟ من؟
صمتت كل الأفسواه
فقط تكلم المصباح
لا تخافى يا شمس

سأضيء الدنيا

وهكذا نعيش مع رئيس دولة بعيدا عن مشاكل الدول الأرضية متمتعين بفضائل دولة الشعر التي يسود فيها الصفاء العلوي ، صفاء الحب والإيمان .

وهنا أيضا تنسمنا عبير هذه الدولة الروحية في بعض المعاني التي كتبها رئيس دولة أخرى هي دولتنا في كتاب السادات « البحث عن الذات » .. هذه المعاني التي تصدر من نبع الشعر وإن كانت من النثر . فالشعر روح قد يتجسد في نثر كما يتجسد في نظم .. كتب يقول :

« .. ما معنى الإيمان ؟ أن تنظر إلى شيء كريحه يحدث على أنه قدر لابد من مواجهته وتحمله .. وبعد ذلك تتغلب على الآثار الناجمة عن هذا .. فيجب ألا تفكر أنه ليس هناك حل لأية مشكلة لأن الحل دائما هناك .. ما الذى يجعلك تفكر هكذا ؟ إيمانك بأن الله قد خلقك لأن عليك دورا يجب أن تؤديه فى هذه الحياة .. والإله الذى خلقك ليس شريرا على الإطلاق ... بالعكس إنه خيرٌ حذا .. ولذلك فالعلاقة المثلى بين الإنسان والله لا تبنى على الخوف أو على الثواب والعقاب .. بل على قيمة أسمى من كل قيمة .. وهى الصداقة .. فمن صفات الخالق الرحمة والعدل والحب . ثم هو قادر على كل شيء ، لأنه مصدر الأشياء جميعا . فإذا اتخذت منه صديقا منحك الاطمئنان .. فتحت أية ظروف وفى جميع الأحوال تحبه ويحبك .. من أجل هذا .. ولأنى أصبحت مليئا باليقين والاطمئنان لم أهتم لحظة واحدة وسط الأحداث المتقلبة التى واكبت حياتى فى جميع مراحل العمر .. ولم يخذلنى الحب مرة واحدة .. بل كان دائما ينتصر فى النهاية .. »

قول يكاد يصدر من النبع الذي صدر منه شعر رابعة العدوية عندما أنشدت في
الله :

أحبك حين حب الهوى

وجبا لأنك أهل لذاكا

فحب الله الحقيقي هو مجرد عن انتظار الثواب أو مخافة العقاب .. هو حبه لذاته

(في الوقت الضائع — ج ٢)

العلية المتجلية في هذا الخلق الرائع لكونه .. وهو الحب الذى ينبع من العقل والوجدان لكل عالم وفنان .. الكل يحسب أدواته : العالم بالفكر والشاعر بالكلمة والمصور باللون والمثال والمعماري بالحجم والموسيقي بالنغم .. ويجمع كل هؤلاء رباط واحد : هو الشعر .. ولكل هؤلاء أصدقاء ورعاة من رجال الدولة الذين منحوا هم أيضا العقل المتسع والإحساس المرهف فعاشوا في رحاب دولة الشعر ، وارتفعوا في سماء هذه الدولة عن كل سلطان دنيوى زائل .

ولقد حدث للموسيقي وعازف البيانو الشهير بادرفسكى أن أنتخب رئيسا لجمهورية بولونيا عام ١٩١٩ وذهب بهذه الصفة لحضور مفاوضات معاهدة فرساي ، فاستقبله بالدهشة رؤساء الدول العظمى المجتمعون لاقتسام مغام الحرب ، وصاحوا قائلين :

« ما الذى جاء بهذا الفنان العظيم بيننا ؟! يا له من انحدار يا سيدى !! نعم .. لقد شعروا أن الفنان انحدر من سماء فنه العلوى إلى مستوى السياسة الأرضية .. ذلك أن الخالد المرتفع هو ما يلهمه الشعر من أفئدة البشر من الإيمان والحب والسلام ..

* * *

هل بلادنا مثقفة ؟

للإجابة عن هذا السؤال يجب أن نضع مقياساً ثابتاً مثل مقياس الحرارة ، نعرف به متى يكون الجسم صحيحاً ومتى يكون عليلًا ؟ وهذا المقياس في الثقافة والحضارة هو عندى اسمه « دائرة المعارف » . فالبلاد التي تعتبر مثقفة متحضرة مثل إنجلترا وفرنسا وأمريكا وألمانيا وإيطاليا وروسيا واليابان إلخ .. كل منها له دائرة معارف بلغة بلده . أما بلاد العرب ومنهم مصر فليس لها في عصرنا الحاضر دائرة معارف كبرى في لغتها العربية . مع أن العرب يوم كانت لهم حضارة معترف بها كانت لهم دوائر معارف في لغتهم العربية لا يوجد لها مثيل في اللغات الأخرى المعاصرة لهم .

فمنذ أكثر من ألف عام وضع الفارابي « إحصاء العلوم » . كما وضع ابن عبدربه في ذات القرن « العقد الفريد » المكون من أبواب عديدة ضمت معارف العرب وأخبارهم . وبعد ذلك بقرنين وضع النويري دائرة معارفه « نهاية الأرب » في ثلاثين مجلداً تشمل الإنسان وما يتعلق به والحيوان والنبات والطب والتاريخ إلخ .. فما الذي جعل العرب اليوم لا يملكون دائرة معارف عربية عصرية وهم الذين سبقوا بلاد العالم وقتذاك في هذا المجال ؟ .. هذا السؤال يجب التفكير فيه وإلقاؤه على أنفسنا . ولعل الجواب هو أن الجسم الصحيح له مظاهر صحة والجسم العليل له مظاهر علة . وكذلك الحال في الحضارة والتخلف . ويوم كان العرب متحضرين مثقفين كان من مظاهر حضارتهم وثقافتهم ظهور دوائر المعارف في لغتهم . وعندما تخلف العرب ظهر التخلف في خلق لغتهم العربية من دائرة معارف تضم نتاج عقولهم وقلوبهم في ماضيهم الزاهر والعصر الحاضر فيما أنتجته الإنسانية كلها من ألوان المعرفة الشاملة ... والإحاطة بالمعرفة الشاملة معناها التقدم ، كما أن القصور عن المعرفة معناها التخلف . ولنترك الآن الكلام في أسباب تخلفنا فهي قصة معقدة وتاريخ طويل . ولنحصر كلامنا في أحوالنا الحاضرة وعالمنا المعاصر . فإذا قلنا أن دوائر المعارف اليوم تحتاج إلى مال

لإنشائها ، وبلادنا العربية فقيرة ، فما القول والكثير من بلادنا العربية اليوم يملك الأموال الطائلة من الموارد البترولية والمعدنية وغيرها ؟ إذن ليس نقص المال الآن هو العقبة . ولأترك لغيرى البحث عن العقبة وأسرع إلى الحل . وإذا رجعنا إلى تاريخ دوائر المعارف وكيف أنشئت ، نجد أنها المهمة الذاتية وليست المهمة الحكومية . فأيام العرب الزاهرة كان الفرد وحده بجهده وصبره هو الذى ينتج هذا العمل الضخم . وفى العصر الحديث هى الشركات والجمعيات التى تدير الأموال وتنظم الأعمال لإنتاج دوائر المعارف الشاملة لكل فروع الجهد العقلى والوجدانى وقد اتسع محيطها هذا الاتساع المذهل ... ولو اتحد العرب واهتموا بهذا الأمر بعض اهتمامهم بالسياسة لنهضوا النهضة الحقيقية التى تعيد إليهم ما سلف من مجدهم الحضارى ، ولأصبح لكلمة « العروبة » معناها العميق المشرف ، ولم تكن مجرد شعار سطحي أجوف .. لهذا كتبت يوما متمنيا أن تقوم « الجامعة العربية » على أساس ثقافى ، وليس على مجرد أساس سياسى . والله نسأل أن يحقق لنا هذه الأمنية فى يوم قريب ..

* * *

هل انتهى عصر الفلسفة ؟

منذ أن انفصل العلم عن الفلسفة وسار بنفسه في خطى وثيدة ، ثم انتفض في القرن التاسع عشر بقوة ، إلى أن وثب في قرننا الحاضر وثبته الكبرى ، كانت الفلسفة باعتبارها المصدر الرئيسى للمعرفة العقلية آخذة في التباطؤ كلما أخذ العلم في الإسراع .. وبعد أن كانت الفلسفة وحدة مكتملة تفتت إلى عناصر منفصلة ، ارتبط كل عنصر منها بفرع من فروع المعرفة ، فأصبح هناك ما يسمى فلسفة العلم وفلسفة الفن وفلسفة التاريخ وفلسفة القوانين وفلسفة الاجتماع ، ونحو ذلك .. فهل الفلسفة بمعناها القديم باعتبارها وحدة قائمة بذاتها يمكن أن توجد مرة أخرى بهذا الوصف والكيان في عصر العلم الكبير ، كما وجدت من قبل ومهدت للعلم ؟ .. وهل العلم اليوم في حاجة إلى الفلسفة ؟ وهل العلماء اليوم يطلعون على الفلسفة ويعتبرونها مصدرا للمعرفة ، أو مجرد تنشيط ذهني ؟ .. كما أن الألعاب الرياضية مجرد تنشيط جسدي ... فالذهن هو الآخر في حاجة إلى منشط . فهل الفلسفة اليوم قد تغير وجه الانتفاع بها . فلم تصبح كافية لتزويدنا بما يزودنا به العلم من الحقائق ، واقتصرت مهمتها على تنشيط الذهن إلى جانب الألعاب الرياضية لتنشيط التي تنشيط الجسم . ولذلك قد تكون مهمتها أكبر عند الشباب وعامة الناس ممن هم في حاجة إلى تدريبات لتكوين العضلات المفكرة ... هل هذا صحيح ؟ .. أو أن الفلسفة لم تنزل ضرورية لأن مجالها مختلف عن مجال العلم ؟ .. عندئذ يجب علينا أن ننظر في مجال كل منهما . وقد نهتدى إلى ذلك بتحديد المهمة وتوجيه السؤال . فالسؤال عند العلم هو : « كيف » ؟ .. والسؤال عند الفلسفة هو : « لماذا » ؟ فمثلا نحن نسأل العلم : « كيف نعيش » ؟ في حين أننا نسأل الفلسفة سؤالا آخر ليس من اختصاص العلم أن يجيب عنه وهو : « لماذا » ؟ .. « لماذا نعيش » ؟ .. وهذا السؤال « لماذا » ؟ .. هو من خصائص الإنسان وحده . وبغير « لماذا » لا تقوم الإنسانية .. أما الحيوان فإذا سئل :

« كيف تعيش أو تحيا » ؟ فإنه بغير نطق وبواقع الحال فقط يدلنا على أن كيفية العيش والحياة عنده هي « الطعام والهواء » والعلم البشرى يدلنا على نفس الإجابة لكن بالمنطق والبحث المعمل . أما السؤال عن غاية الحياة ولماذا نعيشها ؟ .. فلا يمكن للحيوان أن يجيب عن ذلك . لقصور وجدانه كما أن العلم لا يمكنه ذلك . لعجز آلاته ومعامله .. لا بد من الإنسان إذن بتوهج عضلة عقله وإشعاع نور قلبه ، مما فتح له الطريق إلى الدين والفن .. عالم علوى لا يعرفه الحيوان ... عندئذ تكون الفلسفة مقترنة بذات الإنسان .. ومهما يتقدم العلم فإن الإنسان لن يكتفى به .. لأن الإنسان طالما هو إنسان سوف يظل يسأل « لماذا » ؟ وبهذا اللفظ الصغير تعيش الفلسفة ..

* * *

ما هو الفكر ؟

ما هو المقصود بكلمة الفكر ...؟ وهى كلمة تناولتها تعريفات وشروح وتفسيرات . ولكن أبسط ما أقول فيها هو أنها تعنى تأمل الأشياء بالعقل للوصول إلى المعرفة . ومن يمارس ذلك نطلق عليه وصف « المفكر » . والمفكر وصف واسع شامل لأنماط عديدة من الناس . فالفيلسوف مفكر . والعالم مفكر . والأديب مفكر . والفنان مفكر . والمخترع والمهني وكثيرون آخرون كلهم يشتركون فى صفة التفكير . على أن كثيرين أيضا يؤدون أعمالهم بغير ذلك النوع من الفكر الذى نخص به من نطلق عليه اسم « المفكر » .. أولئك هم الأغلبية الغالبة يؤدون أعمالهم بتفكير مسبق صنعه لهم المفكر ورسمه وشق لهم طريقه فساروا فيه دون تأمل أو مناقشة . وهذه الأغلبية الغالبة هى التى تسعى الدول المتحضرة إلى تزويدها عن طريق الثقافة بقدر من النضج العقلى يمكنها من تأمل الأشياء وفحصها ، ليخلصها من الانقياد الأعمى للفكر المصنوع الجامد داخل تعريفات وشعارات . ولقد قلت ذات يوم أن مهمة « المفكر » الحق ليست فى توجيه رأى العام ، بل فى خلق الرأى العام . لأن التوجيه معناه الدفع والفرض والسيطرة وفى هذا التوجيه من المفكر انتصار لرأيه ، ولكنه فى ذات الوقت خذلان لآراء أخرى جديرة بالنظر . إن المفكر فى نظرى رجل تكوين وتربية وخلق لا رجل سيطرة وانتصار ، فهو لا يجب أن يلبسك رأيه ، بل يجب أن يخلق فيك رأيك .. وإذا بقائل يقول : « إنك تفترض أن الناس جميعا قابلون أن يكونوا أحرارا ، وننسى أن أغلب الناس لا يستطيعون ولا يريدون أن يكون لهم رأى ... إنما هم يستسهلون ارتداء الآراء التى تصنع لهم صنعا .. » . وهنا حقا المشكلة ، وإنها لتتفاقم باتساع نطاق الحضارة .. وهو تناقض عجيب . فنحن نريد من الحضارة أن تنضج العقول لتفحص الآراء فإذا هى قد تؤدى إلى العكس . فإن الكسل والسرعة والسهولة وغيرها مما يقترن بتكنولوجيا الحضارة تشجع الناس على طلب الآراء المصنوعة كما يطلبون

— ١٥٢ —

السيارات والملبوسات وأجهزة الإذاعة والتليفزيونات ، ويقبلون هذه الآراء باسترخاء ممن يحسن صنعها لهم وتقديمها إليهم في صناديق أجهزة مبسطة ... هنا حقا المشكلة . وهنا تزداد الضرورة لوجود المفكر المحرر الذى يذكر الناس دائما بأن يفحصوا ويحللوا ويناقشوا ما يقدم إليهم من ملبوسات الآراء الجاهزة ومصنوعات الشعارات الموضوعة . وأن لا يقبلوها إلا بعد أن تمر من مصفاة العقل والمنطق والاقتناع التام ..

* * *

الرحمة

أذكر أنى قرأت فى الماضى عن « أناتول فرانس » أنه سئل عن السمعة الغالبة فى سمات الأدب العظيم ، وتوقعت أن يجيب بأنه الأسلوب أو التعبير أو الموضوع .. ولكنه لدهشتى أجاب : إنه الرحمة ...

ومضت الأعوام .. وقرأت فى كتب تراثنا صورة لو اطلع عليها ذلك الكاتب الفرنسى العظيم لأدرك معنى ما أجاب به على نحو يثير فيه العجب والإعجاب . تلك الصورة هى ما كانت تتعلق بقتل العرب لبناتهم فى الجاهلية بدافع الحمية . فقد روى أن رجلا من أصحاب النبى ﷺ كان لا يزال مغتبا بين يدى رسول الله ، فقال له : « مالك تكون محزونا » ؟ فقال الرجل « يا رسول الله إني أذنبت ذنبا فى الجاهلية فأخاف ألا يغفره الله لى وإن أسلمت » فقال له النبى : « أخبرني عن ذنبك » فقال : « يا رسول الله ، إني كنت من الذين يقتلون بناتهم ، فولدت لى بنت فتشفت إلى امرأتى أن أتركها فتركها حتى كبرت وأدركت وصارت من أجمل النساء فخطبوها . فدخلتني الحمية ولم يحتمل قلبي أن أزوجهها أو أتركها فى البيت بغير زوج ، فقلت لامرأتى : « إني أريد أن أذهب إلى قبيلة كذا وكذا فى زيارة أقربائى فابعثها معى . فسرت بذلك وزينتها بالثياب والحلى ، وأخذت على الموائيق بألا أخونها ، فذهبت بها إلى رأس بئر ، فنظرت فى البئر ففطنت البنت أنى أريد أن ألقىها فى البئر ، فجعلت تبكى وتقول : « يا أبت إيش تريد أن تفعل بى ؟ » فرحمتها . ثم نظرت فى البئر فدخلت على الحمية فجعلت بنتى تقول : « يا أبت لا تضيع أمانة أُمى » .. فجعلت مرة أنظر إليها فأرحمها ومرة أنظر فى البئر .. حتى غلبنى الشيطان فأخذتها وألقىتها فى البئر منكوسة ، وهى تنادى فى البئر « يا أبت ، قتلتنى » .. فمكثت هناك حتى انقطع صوتها فرجعت » .. فبكى رسول الله ﷺ وصحابه وقال : « لو أمرت أن أعاقب أحدا بما فعل فى الجاهلية لعاقبتك » ..

وبكيت أنا أيضا .. وتمثلت لى دموع رسول الله التابعة من رحمته .. وفطنت إلى الصفة التي وصف الله تعالى بها نفسه : « الرحمن الرحيم » وهي العبارة التي نكررها في كل ساعة غير مباليين : « بسم الله الرحمن الرحيم » دون أن نقف عندها مفكرين .. وهي في الحقيقة من جذور ديننا ... ولقد تذكرت ذلك في الغربة ، وأنا في باريس في أواخر الخمسينيات ، وكنت أقرأ كتابا قديما من كتب تراثنا جاء فيه هذا المعنى ، فوضعت في شعر فرنسي منظوم كالآتي :

في البدء خلق الله القلم

خلقه من النور

وقال له : « اكتب » فتردد القلم وقال : « أكتب ماذا ؟ »

فقال الله له : « اكتب علمي »

ثم قال له أيضا : « اكتب لكل كائنات الأرض :

« إن رحمتي سبقت غضبي » ..

وعلى ذكر الشعر خطر لى أنى قبل ذلك بأكثر من ثلاثين سنة كنت في باريس كذلك وكانت الحرب العالمية الأولى قد انتهت منذ قليل ، وظهرت مبادئ التحرر في كل شيء . في المجتمع والمرأة والسياسة والأفكار . وكان من نتيجتها على نحو محسوس ظهور المذاهب المتحررة في شتى الفنون . ونشر أثناء وجودنا هناك « منفستو » « السوربالية » وبرز اسم أندريه بريتون ، ونشر وقتئذ في الشعر أعمال « ماكس جاكوب » أحد مؤسسي مذهب الشعر « التكعيبي » كما شاع في الجمهور التصوير التكعيبي على يد « بيكاسو » و « براك » . والموسيقى كذلك ظهر فيها اتجاه « سترافنسكي » و « بولنك » وفي المسرح « بيراندللو » إلخ إلخ .. كلها تنحو نحو التخلص من قيود القواعد الراسخة والانطلاق إلى التحرر من النظم والقوافي في الشعر ومن الإيقاعات القديمة في الموسيقى ومن دقة الرسم في التصوير . هذا في أوروبا . أما في البلاد المستعمرة مثل مصر فكان التحرر متجها إلى السياسة وإلى الانطلاق من قيد الاحتلال . إلى أن كاد الاحتلال ينتهي في بلادنا فبدأ التحرر يتجه إلى موضوع آخر .

فكان هو الشعر وتخليصه من القوافي . فظهر الشعر الحر على نسق ما حدث في أوروبا قبل ذلك بنحو ربع قرن أو أكثر .. ولكوني عاصرت ظهور الشعر الحر في فرنسا في أول العشرينات فقد بدأت هناك بمحاكاته . وقد نشرت نماذج من ذلك في كتابي « رحلة الربيع والخريف » . ورغم ذلك فقد لاحظت أن هذا الشعر وإن كان حرا حديثا عند الأوربيين فهو ليس حديثا عندنا . فاللغة العربية قد سبقتهم إليه بنحو أربعة عشر قرنا . فالقرآن الكريم في الشكل هو شعر حر لم يعرفه العرب ولا غيرهم . وقد نشرت في كتابي هذا نماذج من آيات شريفة رائعة في شاعريتها المعجزة وموسيقى إيقاعها العلوية ، ولعجزنا عن اتخاذ القرآن الكريم هاديا ومرشدا في الشعر الحر عندنا استسهل الكثير من الشعراء عندنا الالتفات إلى النموذج الأوروبي . لهذا كنت في أواخر الخمسينات في باريس وأنا في سن الكهولة أكثر رغبة في المذاهب القديمة المستقرة وجمالها الراسخ . ورأيت في موسيقى النظم ما يطمئن القلب ويريح النفس أكثر من موسيقى حرة أشك في مدى تأثيرها .

* * *

ولنرجع إلى ما قاله أناطول فرانس عن الرحمة فأذكر ما خامرني من رية في أن تكون ذاكرتي قد خانتني ، وأن يكون هذا الكاتب ليس هو صاحب هذا القول ، فما أعرفه عن أناطول فرانس يظهره لي في صورة أخرى تنطقه بقول آخر .. فقد سمعت من الدكتور محمد صبرى الشهير بالسربوني — وقد تعارفنا وتصادقنا أيام باريس في العشرينات — أنه كان قد التحق بسكرتارية الوفد المصرى بزعامة سعد زغلول باشا عندما جاءوا باريس آملين في حضور مؤتمر فرساي لعرض قضية مصر واستقلالها . فوجدوا الأبواب مغلقة في وجوههم ، بل إنهم لم يجدوا صحيفة فرنسية واحدة تقبل مجرد نشر خبر عن حضور وفدهم بمجاملة للإنجليز . وروى لي صبرى السربوني مبلغ ضيقهم بهذا التجاهل لهم ولبثوا فترة لا يدرون ماذا يفعلون .. وفي ذات اليوم كان يسير في شارع سان ميشيل قرب حدائق اللوكسمبورج في صحبة أحد أعضاء الوفد المصرى وكان فيما أذكر كما قال لي هو « عبد اللطيف بك المكباتى » .. وإذا به يرى أمامه « أناطول فرانس » يضع ذراعه في ذراع شخص مصرى يعرفه من مدرسى اللغة

العربية جاء فرنسا لتعلم اللغة الفرنسية ، فكان كل ما شغله الجرى وراء فتيات باريس .. فوقف صبرى السربونى فى دهشة . وما إن انصرف « أناتول فرانس » وصار المدرس المصرى وجده حتى أسرع صبرى وانقض عليه وقال له : « انت عارف من اللى كان معك ؟ » فقال بكل بساطة : « واحد صاحبي » . فلما سأله « كيف عرفه ؟ » روى له أنه اعتاد المجيء إلى حديقة اللوكسمبورج عصر كل يوم لمشاهدة الجمال الباريسى ، فوجد فى نفس المكان هذا العجوز الفرنسى يأتى لنفس الغرض . ومع مرور الأيام تعارفا وصارا يجلسان معا جنباً إلى جنب على نفس « الدكة » الخضراء ، يتأملان فى إعجاب هذا الجمال الفتان فى القوام والسيقان التى خلقها الله تعالى متعة للعباد !.. فقال له صبرى السربونى .. « اسمع .. انت قاعد كل يوم مع أكبر كاتب فى فرنسا » فتعجب المدرس قائلاً : « العجوز البصباص الخباص ده ؟! » .

ولبت السوربونى ومعه عضو الوفد يقنعان ذلك المدرس الغافل بموقف مصر وضرورة حضورها مؤتمر فرساي للمطالبة باستقلالها . وتجاهل الصحافة الفرنسية بتأثير نفوذ الإنجليز لوجود وفد مصر . ثم ختما كلامهما بقولهما إن كلمة صغيرة بقلم أناتول فرانس — هذا الذى لا يعرف عنه سوى أنه عجوز بصباص — يمكن أن تغير الموقف وتفتح لهم باب الصحافة والنشر .. وطلبا إليه خدمة للوطن أن يقدمهما إلى هذا الكاتب العظيم ... وذهب ذلك المدرس إلى مقعده فى الحديقة عصر اليوم التالى ، وانتظر حضور « أناتول فرانس » كالمعتاد . فلما حضر وأخذ ينظر حواليه ويسأل صاحبه المصرى عن الفتيات الجميلات ، نهض المدرس وخاطبه لأول مرة باحترام عميق قائلاً له : « اغفر لى جهلى يا سيدى .. ما كنت أعرف أنك شخص عظيم ، لم أكن أعرف أنك أكبر كاتب فى فرنسا ! » فتغير وجه أناتول فرانس وأسف ، ومد يده مودعا وهو يقول لصاحبه البسيط وقد عرفه : « خسارة يا سيدى ! لقد انتهت صداقتنا ! » وذهب عنه وتركه وحيدا حائرا .. ولكن يبدو أن « أناتول فرانس » وإن كان لم يحاول لقاء هذا المصرى ثانية إلا أنه أخذ يهتم بمصر وموقفها وقتذاك . فلم يمض قليل حتى كتب مقدمة لكتاب « صوت مصر » مدافعا عن مصر واستقلالها

ولعل دافعه في ذلك كان « الرحمة » . وإن كانت نواذره باقية في ذهني تصوره بالصورة الأخرى ... ومنها عزوفه عن المواقف الرسمية في الأدب وغيره . فقد كان يرفض دائما قبول العضوية في « المجمع الفرنسي » — وهو أكبر مجمع أدبي في فرنسا يستقبل العضو الجديد فيه بالحرس الجمهوري وموسيقاه كما يستقبل كبار السفراء . وظل يرفض إلى أن توسل إليه ناشر كتبه أن يقبل عضوية هذا المجمع لأنه يتمنى أن يرى اسمه فوق كتبه مطبوعا تحته تلك العبارة المرموقة « عضو المجمع الفرنسي » .. ذلك أن المقرر في هذا المجمع من قديم أن العضو فيه يجب عليه حتما في كل كتاب أو مقال ينشره أن يضيف إلى توقيع عبارة « عضو الأكاديمية الفرنسية » . وعندما كان يظن أحد عظماء الأدباء أنه أكبر شأنا من التشرف بالانتساب إلى المجمع بهذه العبارة كان يقول له : « ... ولكن المجمع من حقه أن يتشرف بانتساب عظماء الأدباء إليه .. » ومن كان يرفض ويأنف ويتعالى فما عليه إلا أن يتعد عنه .. وهكذا ظل أناطول فرانس بعيدا حتى ألح عليه ناشره ، وعندئذ قبل عضوية المجمع كرامة للخاطر الناشر ! ولكنه لم يضع قدمه في هذا المجمع . وإن كان اسمه ينشر مقترنا بهذه العضوية في كل كتاباته على الرغم منه ... ولم يتخل أناطول فرانس عن عادته وسلوكه في ملاحقة كل حسناء بنظرات الإعجاب .. إلى أن كان يوما في إحدى الحدائق العامة وقد ضبطه حارس الحديقة يعاكس أو يغازل إحدى الحسان ، فاقتاده إلى مركز الشرطة . وهناك قابله ضابط « النقطة » بالتجهم والاستنكار لأمر هذا العجوز المخرف الذي « يعاكس » الفتيات .. وسأله عن اسمه فأجاب .. « أناطول فرانس » .! فاستفسر منه الضابط « عضو الأكاديمية الفرنسية »؟؟ فلما أجاب بنعم ، نهض الضابط باحترام وحياء وأكرمه غاية التكريم وودعه بتحية الشخصيات الكبيرة المحترمة .. فخرج « أناطول فرانس » يقول لنفسه بدهشة : « ما كنت أظن أن عضوية الأكاديمية لها هذه الفائدة !.. » .

إذن ... الرحمة هي في أعماق القلب .. هي كالذهب في أغوار التراب .. هي شيء أقوى من مظاهر السلوك وأبقى من توافه النزعات ..

طعام الوجدان

ليس بالخبز وحده يعيش الإنسان ولكن إلى جانب

طعام الفم لابد من طعام الوجدان

ما الذى يفعله الإنسان فى طفولته بعد أن يترك ثدى أمه ؟ إنه بالطبع يحب . أى يبدأ فى استخدام يديه وقدميه للتحرك ثم للعب . وليس الطفل وحده هو الذى يلعب . صغار الحيوان أيضا تلعب . ولكن اللعب عند الحيوان هو لمعرفة قدراته العضلية . أما عند الإنسان فهو لاكتشاف ما حوله من أشياء . وهذا اللعب فى مرحلة الطفولة هو المنبع الأول للفن . فالفن فى مظهره لعب . أى نشاط لا يقصد به الأكل والشرب ولا المنفعة المباشرة . ولكنه فى جوهره اكتشاف . ولهذا كانت أهمية الفن . إنه اكتشاف الإنسان لحياته عن طريق الوجدان . فالإنسان الأول بعد أن صاد الجاموس الوحشى وتغذى بلحمه أخذ فى رسمه على جدران كهفه . ثم أخذ الرسم ينمو والتصوير يتطور حتى وصل إلى إبداع رفايل وأقرانه من عظماء الفنانين . وفطنت البشرية إلى أن الفن طعام ضرورى لتغذية الوجدان الإنسانى . فالوجدان يظل نائما حتى يهزه الجمال أى الشعور بتناسق الخليقة . ومع الشعور بالتناسق فى الخلق تنمو عند الإنسان الرغبة فى معرفة الخالق . ثم يفتح الباب أمامه للبحث فى قوانين الوجود . إذن من الضرورى لكى يكون الإنسان إنسانا متميزا عن الحيوان أن يتغذى بطعام الوجدان إلى جانب طعام الفن . ولعل من أسر هذه الأطعمة وأقربها إلى مدارك الطفل والصبى وجود عمل جميل من أعمال الفن ، يوقظ فيه بالتناسق البديع فى الخطوط والألوان وجدانه النائم . إنها مسؤولية الأم مربية الطفل فى البيت أن تضع تحت عين طفلها عملا جميلا فى صورة لوحة بديعة ، ثم هى كذلك مسؤولية المدرسة أن تزين جدرانها بلوحات

جميلة . بل مسئولية الدولة في أن تزين ميادينها وحدائقها العامة بروائع فن النحت ، حتى تظل عيون الشعب متصلة بالجمال فيزود عنه ويحميه من كل تخريب . وفي البلاد الراقية يغذون شعوبهم بآثار الفنون البديعة في كل مكان ، حتى في أنفاق المترو تحت الأرض . ولذلك لا ندهش إذا علمنا كيف تحرص هذه الشعوب على نظافة شوارعها وأماكنها العامة ولا تسمح لأحد بخدش بسيط لهذا الجمال .. إن هذه التريبة الفنية في البيت والمدرسة والشارع هي سر رقي هذه الشعوب التي أمسكت بزمam التقدم الإنساني . وكل هذا لأنها علمت أنه ليس بالخبز وحده يعيش الإنسان . ولكن إلى جانب طعام الفن لا بد من طعام الوجدان .

* * *

ذكريات ...

إنها ذكريات أثارها أصحاب المؤلف الثلاثة ، ممن صاحبه منذ شبابه وذكرهم في كتبه بالشكر والعرفان : العصا والبيرييه والحمار ... وجاء موسم الإجازات وطاب للكائنات المكدودة الركون إلى الراحة والاسترخاء ، فقد انصرف الفرسان الثلاثة : العصا والبيرييه والحمار عما يثقل على النفس ، بحثا عن حديث هين لين . فكانت البغية في حديث الذكريات ..

قالت العصا :

— من منا يا ترى الأقدم ؟ .. ربما كنت أنا .. فقد وضعت يدي في يد صاحبي في آخر العشرينات ...

فقالت البيرييه :

— بل أنا الأقدم .. فقد وضعني صاحبي على رأسه في أوائل أو أواسط العشرينات ! ..

فقال الحمار :

— أنا إذن أقدم الجميع . فقد عرفني صاحبي منذ ما يزيد عن ثمانين عاما .
قالت البيرييه :

— فليذكر إذن كل منا الظروف والملابسات التي تم فيها اللقاء . أما أنا فقد كان لقائي به في باريس . ولم أكن أول ما وضع على رأسه . فقد سبقتنى قبعة فيراينة اللون ، لم يلبث أن نبذها واستبدل بها أخرى سوداء عريضة الأطراف مما يضعه الفنانون في مونتارتر في ذلك العهد البعيد . ولكنها أتعبته لاضطراره إلى رفعها كلما أراد التحية ، إلى أن اهتدى أخيرا إليّ أنا ... أى البيرييه ، فقد وجدني مريحة مثل الطاقية المصرية يستطيع أن يطويها ويدسها في جيبه ، ولا يحتاج إلى رفعها للتحية .. واحتفظ بي وأدخلني في مصر وجعل يكتب عني ويروج لي حتى كثر من يلبسني ، لما عندي من

مزايا السهولة في اللبس والرخص في الثمن والشبه بالطاقيّة البلدية . وعمّ استعمالى حتى شملت الجيش والشرطة ولكن العجيب أنى فى باريس اليوم كدت أختفى من فوق الرؤوس .. فالرؤوس الآن عارية ..

قالت العصا :

— أما أنا فقد كانت معرفتى به مرتبطة بعمله فى القضاء . فهو عندما عينوه وكيلًا للنّياية فى الأرياف ، كان يقوم لتحقيق الجرائم ومعه سكرتير كهل ابيض شعره وجعل له وقارا ، فكان رجال الأمن فى الريف من عمد شيوخ يستقبلون السكرتير بالاحترام على أنه هو وكيل النّياية ، ويحملون الوكيل الأصلي لمظهره الشاب ويحسبونه هو الرؤوس . فأشار بعض العارفين المجربين على صاحبنا إن يحمل عصا لتوحى بأنه هو الرئيس ، إذ لا يعقل فى الريف أن يكون الرؤوس هو الذى يحمل العصا فى حضرة رئيسه ... واشترانى وحملنى فى يده ، فلم يخطئه بعد ذلك العمد والخفراء ، فما أن يحل فى مكان حتى يهرع إليه الجميع موقنين أنه وكيل النّياية ... ومنذ ذلك الوقت وأنا أألزمه ملازمة ذراعه فقد أصبحت عادة من عاداته الراسخة ، بغير مصاحبتي له واتكائه على يتعثّر فى طريقه ، وخاصة اليوم فى شيخوخته .

قال الحمار :

— أما علاقتى أنا به فهى أعرق وأوثق . فقد ارتبط صباه بصباى . كان صبيّا يلعب فى الغيط بقريته الصغيرة ، وكنت جعحشا أُمّرح وأقفز إلى جانبه وسط البرسيم الأخضر اليانع كلما هل الربيع ... فنشأنا معا وكبرنا معا . وذهب هو إلى المدن ، وبقيت أنا فى الريف . ولكنه كلما جاء إلى القرية سأل عنى ونعود نتناجى بغير لغة وكلام فكل منا يفهم الآخر بغير حاجة إلى حديث . وقد رق لحالى عندما رآنى فى كبرى يلقي على ظهري غبيط السباخ وأعمل وأكدح طول يومى من أجل حفنة فول أو شعير ، فكان يوصى بى خيرا ... ثم كنت دائما فى ذاكرته وعلى لسانه وسن قلمه ، يجرى باسمى الأحاديث ويدافع عنى وعن الكادحين المظلومين من أمثالى ، ويحاول أن يزيل ما لحق بى منذ القدم من صفات الذلة والمهانة والسخرية . فقرن اسمى باسمه ...

وهنا ضحكت « العصا » و « البيريه » فى وقت واحد ...

(فى الوقت الضائع جـ ٢)

فقال لهما الحمار :

— ما الذى يضحك فى هذا ؟.

فقالت العصا ومعها البيريه :

— تذكرنا يوما مر فيه بائع كتب متجول ينادى على المقاهى بكتاب « حمار الحكيم » فاستوقفه أحد المشترين وطلب نسخة وهو يقول له : بكم كتاب « الحكيم الحمار » ؟ وقال له زبون آخر : « حمار الحكيم » ؟ هل « توفيق الحكيم » غير اسمه ؟.

فقال لها الحمار :

— ما دمت تريدون الضحك فإليكم ما حدث يوما فى جلسة جنح حضرها صاحبنا : اتهم شخص بأنه سب أحد البيكوات بقوله له « يا حمار » فقال له القاضى : « كيف تقول للبيك يا حمار ! » فقال المتهم : هل الى يقول للبيك يا حمار يعاقب ؟. فقال له القاضى : طبعا يعاقب . فقال المتهم سائلا : « والى يقول للحمار يا بيك ؟ فرد القاضى : هذه ليس فيها عقوبة ...

فأسرع المتهم يقول للقاضى : طيب سعيدة يا بيك !!

على شط النيل

لم يكن مشى الفرسان الثلاثة « البيريه » و « العصا » و « الحمار » في الصباح مشيا حثيثا بل كان دائما مشيا متباطئا متمهلا ، كمن يريد تأمل ما يجري في الطريق وما يبدو من أحوال الناس . وفي طريق الكورنيش كانت « البيريه » أكثر التفاتا إلى النيل وما يحدث فيه .. ولذلك استوقفت الزميلتين أمام منظر قلما يثير التفات الآخرين ... إنه منظر الصيادين في قواربهم الصغيرة .. وجمد الثلاثة أمام المنظر لحظة ، إلى أن قالت « العصا » :

— وآخرة وقوفنا ؟! قارب صيد عادى ! ماذا فى ذلك ؟

فقالت « البيريه » وهى مستمرة فى مراقبة القارب :

— نعم . قارب صيد عادى مثل بقية القوارب .. ولكن انظروا إلى ما بداخله . إنه عالم صغير . أسرة متواضعة . رب الأسرة هذا الصياد الذى يرمى الشباك وهذه زوجته أمام نار واهور جاز تطهو طعاما ، وإلى جانبها طفل رضيع ، والابن الأكبر يساعد أباه ، والأوسط يمسك بالدفة .. وهاهى ذى الزوجة قامت بإشارة من الزوج تمسك بالمجدافين لتسير بالقارب فى الاتجاه المطلوب .

فقال الحمار :

— حقا .. أسرة متكاملة متعاونة .. توزيع العمل فيها يشبه التوزيع الموسيقى ،

فبادرته العصا بقولها :

— اسكت من فضلك ! لا تتكلم أنت عن الموسيقى .. لا تذكرنا بأنكر

الأصوات !

واستمرت البيريه فى تأمل القارب وهى تقول :

— لا شك أن سكان هذا القارب الصغير لا يشكون من أزمة المساكن ولا يعرفون

شيئا عن نخلو الرجل وتكاليف الديكور ، ومشكلات الشقق المفروشة ، والشرفات

المظلة على النيل ، وما تدخلها الشمس وما لا تدخلها ، وحى الزمالك أو الجيزة أو روض الفرج .. لا شأن لهم بكل ذلك .. فهذا العالم البسيط الذى يملكونه يستطيع أن يمنحهم حرية الانتقال فى كل حى ، ويستقبلون كل شمس وكل اتجاه .. والنيل كله لهم ، يحميهم من برد الشتاء بأشعة شمسهم ومن قيظ الصيف بلطيف نسيمه . فلا حاجة لهم بالمعاطف والكوفيات ولا بالحرير والمهففات ولا بظالة عندهم ولا تسكع فيما لا يفيد .

فقال الحمار :

— نعم .. جميل كل هذا ولكن .. حياتهم هذه بين الماء والهواء ترادف أرزاقهم المتعلقة أيضا بالماء والهواء ! إنهم لا يستطيعون أن يطالبوا السمك فى الماء بمرتب ثابت ! ولا الهواء والسماء بمظلة تأمينات !

فقالت البيريه :

— يظهر أن السماء هى مظلة الذى يعيش فى الهواء .. أما الذى يعيش تحت سقف من الأسمنت والحديد فهو الذى فى حاجة إلى مظلة أخرى غير السماء !

فقال الحمار :

— ومن قال لكم إن الذى يعيش فى الهواء لا حق له فى المظلة الأخرى مع مظلة « السماء » ! لماذا يحرم ؟!

فقالت البيريه :

— لأنه فى وسط الماء .. كيف نصل إليه ؟ لا هو عامل فى مصنع ولا فلاح فى غيط ؟!

وتحملت العصا من الضجر وقالت :

— احشروه تحت أى مظلة وخلصونا !

وتحركت بهم لاستئناف المسير .. وساروا ثلاثتهم فى صمت .. إلى أن أشرفوا على جماعة تتشاجر فى الطريق . كان التضارب بالأيدى والأرجل بين الطرفين .. ولم يقف الفرسان الثلاثة للمشاهدة أو لمعرفة السبب . فهم فى مثل هذه الأحوال يرون الأصوب تجنب التدخل والابتعاد عن البهذلة .. فأسرعوا فى المشى بعيدا عن الخناقة ،

وإذا بشخص من أحد الطرفين قد انسل من وسط المشاجرة ولحق بهم يريد انتزاع العصا قائلا :

— عن إذنكم .. اسمحوا لنا بالعصا لحظة واحدة نضرب بها الجماعة الأوغاد دول !

ولم يكذب كلامه حتى حلق به واحد من الطرف الآخر جاء هو أيضا لانتزاع العصا لنفس الهدف . وقامت بين الاثنين معركة حول العصا وتراشق بالسباب .. وأمسك كل منهما بجزء من العصا يجذبه ناحيته .. واشتد الجذب والتد ، والعصا المسكينة تكاد تنخلع رقبتها في يديهما وتصبح بالزميلتين لإنقاذها . ولم تستطع البيريه أن تفعل شيئا غير الكلام بالحسنى والمنطق قائلة :

— يا اخوانا .. عيب ... هذه العصا ليست للضرب ! ولكن صوتها ذهب هباء بين صخب الشتائم ورعد الصياح .. ولجأت البيريه إلى الزميل الحمار قائلة :

— كيف ننقذ زميلتنا العصا من هذه الورطة ؟! الكلام لا فائدة منه كما رأيت . ألا تستطيع التدخل بالرفض ؟

فقال الحمار :

— الرفض ؟! أرفض ؟! أنا نسيت الرفض من زمن بعيد ! أنا لم أعد أستخدم الحافر .. أنا الآن أستخدم العقل !

فقالت البيريه في تهكم :

— العقل ؟! الآن ؟! أفى عالم عاد إلى استخدام الخوافر ؟!

الفنان والجمهور

قالت العصا : قضية الفنان والجمهور قديمة . وهى تثير التساؤل : هل من واجب الفنان أن يحترم الجمهور فى كل الأحوال ؟ ..

قالت البيريه : أذكر فى ثلاثينيات هذا القرن أن حضرت المهرجان الفنى الكبير الذى يقام فى مدينة سالزبورج ، وكان من أهم برامجه حفلات الموسيقى العظيم « توسكانينى » وهو فى قمة المجد العالمى . ومن الجماهير من حضرت خصيصا من أجله قادمة من كل فج عميق . وأنا منهم . فما أن ظهر حتى دوت القاعة الواسعة بتصفيق هز أركان المكان هزا ، فما الذى فعله ذلك الفنان ؟

قال الحمار : التفت طبعاً إلى الجماهير وانحنى لها طويلاً ..

قالت البيريه : على العكس أدار ظهره للجماهير والتفت إلى فرقته الموسيقية وأمرها بالشروع فى العزف .

قالت العصا : ما معنى هذا ؟! . أهو عدم احترام للجمهور ؟!

فقال البيريه : معناه احترام للفن . فهو قد أراد أن يفهم ذلك الجمهور أن تصفيق التحية يجب أن يوجه للفن وليس لشخصه . لأن شخصه لا يساوى شيئاً بغيره . ولكى تكون التحية للفن فإنه يجب أن تكون التحية والتصفيق بعد أن يؤدى هذا الفن ويعرضه . ولذلك رفض أن يجعل شخصه يلتفت ليتقبل التحية قبل عرض الفن ... وهنا سأل الحمار فى عجب :

— وماذا فعل الجمهور ؟!

قالت البيريه : فهم الجمهور قصده وصمت فى الحال تأدياً ، وجعل يصغى إلى الفن فى سكون وخشوع — إلى أن انتهى العزف فالتفت الفنان توسكانينى إلى الجمهور الذى استقبله بالتصفيق المدوى ، وعندئذ فقط انحنى الفنان العظيم للجمهور ، وقد تقبل منه التحية والتقدير ، مسرعاً بالإشارة إلى فرقته كلها كى تنهض لتقبل معه ما

تقبل باسمها من تحية وإعجاب ...

قالت العصا : حقا . هذا احترام للفن .

وقال الحمار : وهذا أيضا احترام للجمهور . لأن الجمهور الذى يستحق الاحترام هو الجمهور الذى يحترم الفن ..

قالت البيريه : إن الجماهير فى البلاد المتحضرة لا يمكن أن تصفق تحية للفنان إلا بعد العرض . ولعل ما رأيته فى حالة توسكانينى كان استثناء لظروف سنه فى أواخر أيامه فلم تملك الجماهير نفسها من تحيته عند رؤيته ، ولكن عندما صحح لها تصرفها وذكرها بواجبها نحو الفن فهمت فى الحال حقيقة الموقف وما ينبغى أن يكون التصرف ..

قال العصا : أذكر أن الأمر كان يحدث على هذا النحو حتى فى بلادنا فى العشرينات والثلاثينات وما قبلها . كانت جماهير المسرح لا تصفق للممثلين إلا بعد العرض . أما اليوم فإنه ليدهشى ويخجلنى أن أرى الجماهير تستقبل كل ممثل يظهر بالتصفيق ، وهو يترك دوره وينسلخ من فنه لينحنى وينحنى ليستدر التصفيق ، على نحو يثير الرثاء على مصير الفن وكرامة الفنان الذى هبط إلى شحاذ يستجدى التصفيق ...

وعاد الحمار يسأل : وعلى من تقع المسؤولية ؟ على الجمهور الذى يصفق قبل عرض الفن ، أو على الفنان الذى ينحنى متقبلا التحية لشخصه قبل أداء فنه ؟ ..

قالت البيريه : المسؤولية كلها تقع على الفنان . لأن الفن هو الذى يرى الجماهير ويهذب ذوقها ويغيرها ويشكل مصائرهما . فالفنان الحقيقى الذى يفعل ما فعل توسكانينى عليه هو أن يصحح تصرف الجمهور بكل هدوء ، بأن يعتبر التصفيق فى وقت غير مناسب كأنه لم يكن ، ويمضى هو فى عرض فنه ، حتى يفهم الجمهور السلوك القويم تجاه الفن والفنان ...

قالت العصا : نحن نتكلم عن الفنان ... الفنان الحقيقى الذى يحترم الفن قبل أن يحترم الجمهور . ولكن ... هل هو موجود عندنا إلا فى النادر ..

تاكسى

كان الصباح منذرا بالدفء . وعند المشى والشمس ساطعة يقترب الدفء من
الحر ويصبح المشى مرهقا . وهذا ما شعر به الفرسان الثلاثة : « البيريه » و « العصا »
و « الحمار » فى منتصف الطريق . فقالت البيريه :

— إذا أردنا مواصلة المشوار فلا بد من « تاكسى » ...

فصاحت العصا ومعها الحمار :

— تاكسى ١؟. أهذا ممكن ١؟. جرى فى عقلك حاجة ١؟.

— ولم لا ١؟ ها هى ذى التاكسيات تملأ الشوارع ...

— فلنحاول إذن ... لعل وعسى !...

وكانت المحاولة اليائسة من أجل إيقاف تاكسى من تلك التاكسيات التى تسابق
الريح ولا تقف لمخلوق ...

وقالت العصا . بعد أن تعبت من الإشارة إلى هذه التاكسيات لا بالوقوف بل بمجرد
إلقاء نظرة :

— حتى النظرة إلينا لا نظفر بها من السيارة .. نظرة يا ست !..

وقالت البيريه فى صيحة :

— انظروا .. انظروا .. هذا التاكسى الخالى بلا ركاب .. إنه مع ذلك يجرى

بأقصى سرعة كأنه فى ميدان سباق !

وقالت العصا :

— العجيب أن أكثر التاكسيات المشغولة لا تحمل غير راكب واحد يجلس إلى

جوار السائق ، وبقية المقاعد خالية كأنها تتحدى جميع الواقفين المرهقين من طول

الوقوف والانتظار المتطلعين إلى مقعد يتقدمهم من هذا البلاء والعياذ بالله ...

وقالت البيريه :

— وما العمل الآن ؟! ليس لنا إلا أن نواصل السير على الأقدام ، فجحيم الحر والشمس خير من جحيم هذا الأمل الكاذب والسراب الخادع ...
ومشى الفرسان الثلاثة في إطرار ويأس ومذلة ... وإذا بأحدهم يصيح فجأة :
— اقرصوني !.. هل أنا في حلم ؟!. أليس هذا الواقف على ناصية الشارع شبح تاكسى ؟!.

فصاح زميلاه :

— نعم ... نعم ... إنه تاكسى بالفعل ... وتاكسى خال ... وسائقه واقف إلى جواره يتناول فطوره ...

— حقا ... سائقه فارش منديله على الرقرف وعليه الطماطم والطعمية والجبن والفجل والبصل ...
جاءنا الفرغ !.

وأسرع الثلاثة إلى التاكسى فابتسم لهم السائق وأشار إلى طعامه قائلا :
— تفضلوا معنا !..

فشكروه وانقضوا بسرعة على باب التاكسى يريدون الركوب .. وإذا بالسائق يمنعهم بلطف :

— لا مؤاخذه ... مشغول !..

فصاح الثلاثة في يأس :

— يا تها زى بعضه !.. حتى الفطور مع السواق أسهل من ركوب التاكسى !.
والتفتت العصا والبيريه إلى زميلهما الحمار قائلتين :
— ورغم ذلك معنا ركوبة تسهل لنا الأمور !.

وفطن الحمار وقال :

— ما هو قصدكم من فضلكم ؟!.

— لا ... لا شيء ... نحن فقط نتكلم بصفة عامة على سبيل المثال : لو أباحوا

استخدام الحمير لحل أزمة المواصلات ... وجعلوا في كل حي من الأحياء موقف حمير كما كان الحال في القرن الماضي ومطلع القرن الحالي ... أما كان هذا أهون من هذا الكرب الذي نحن فيه؟! ..

— دعكم من هذا التخريف ولنفكر في حلول عملية ...

— فكر لنا أنت بعقلك الراجح ...

— يقال إننا في بلد اشتراكي ... فهل من الاشتراكية أن يستأثر راكب واحد بالسيارة التاكسي وفيها مقاعد خالية تتطلع إليها أكداس من الجموع الواقفة؟! لماذا لا يسمح لمثل هذه السيارة بأن تعرض مقاعدها الخالية على من يقبل من هذه الجموع شغلها؟! ..

— المانع هو أن بعض المسؤولين في بلدنا ينظرون إلى كل حل من زاوية الاعتراض ، ويتنهي الأمر إلى إبقاء كل شيء على حاله ولا داعي لوجع الدماغ! .

فقال الحمار :

— إذن لا داعي إلى وجع دماغنا نحن أيضا ... مادامت الأشياء لا تؤخذ على سبيل الجد ! وبالمناسبة ... عندما عزم علينا السائق الكريم بتناول الفطور معه هل كان جادا حقا؟! ..

فقالت البيريه :

— أشك ...

فقال الحمار :

— ألم يقل لنا : « تفضلوا معنا »؟! .

فقالت العصا :

— هذه العبارة في بلدنا مجرد كلام ... ككل كلام! ..

فقال الحمار :

— صحيح ... وأذكر أنه في ذات يوم كنت أسير في الطريق قاصدا مكانا بالذات

وإذا بشخص لا أعرفه يشير إليّ بالتحية وهو سائر في الاتجاه العكسي قائلا لي :

— ١٧١ —

« تفضل معنا » ، واستمر في سيره حتى اختفى عن نظري ... وتركتني أردد عبارته
وأتعجب : انفضل معه !؟ فين ؟... ولماذا !؟.

فقلت البيره ومعها العصا :

— لا تدقق !.. أنسيت أننا في بلد الكلام في ناحية والعمل في ناحية ..

* * *

الحب في جهنم

طلع الصيف عندنا في أكثر أيامه غبار يعمى الأبصار ، وحر لافح يشوى الوجوه ،
وشمس تلقى على الرؤوس نارا من جهنم والعياذ بالله . والويل لمن يمشى في الطريق
ساعة الظهيرة . فما من شجرة تظله وتدرأ عنه السعير.. وشاء الحظ العاثر للفرسان
الثلاثة : « البيريه » و « العصا » و « الحمار » السير في ذلك الوقت في أحد
الطرق ، وقد أرهقهم القيظ وقطع أنفاسهم وأسال العرق على أجسامهم ، وهم
يشتدون في المشى للخلاص من هذا الكرب والوصول إلى البيت .. وإذا بشخص قد
اعترض طريقهم وقال في أدب :

— من فضلكم .. أسمحون لي بسؤال ؟.

فقال العصا في ضيق :

— أظن الوقت غير مناسب ..

فقال الشخص :

— إنه مجرد سؤال بسيط ..

فقال البيريه رغبة في الخلاص :

— تفضل واسأل بسرعة ، لأن الحر شديد كما ترى !.

فقال الشخص :

— سؤالى هو .. هو ..

فقال العصا :

— أظن تريد أن تسألنا عن اسم شارع ..

فقال الشخص :

— لا .. لا .. ليس السؤال عن شارع .. إنما هو عن .. عن ..

فقال الحمار نافذ الصبر :

— تكلم يا حضرة المحترم .. تكلم وخلصنا .. عرفنا سال من لهيب الشمس
وجحيم الحر ..

فقال الشخص :

— حالا .. حالا .. سؤالي بسيط .. أريد أن أعرف فقط وأسأل حضراتكم :
ما هو الحب ؟ ..

فصاح الثلاثة في نفس واحد :

— الحب !!؟

فقال الشخص :

— نعم الحب ... إنه شيء يبدو بسيطا واضحا بديها ، ولكن إذا نحن تعمقنا فيه
وحاولنا دراسته بأناة وصبر وتفصيل فإن أغواره ستكشف لنا عن غوامض وغرائب
ومعضلات .. ولا بأس من أن أقص عليكم قصة على سبيل المثال .. طويلة بعض
الشيء ولكنها تستحق أن ..

وقاطعه الثلاثة وقد هموا بالانقضاء عليه :

— أنت الذى تستحق أن !!

أرادت العصا أن تنزل على أم رأسه .. ولكن البيريه استوقفتها وهى تقول :
— بل الذى يستحق هو نحن الثلاثة .. نحن الذين استمعنا إليه وصدقناه وهو يقول
إن سؤاله بسيط ..

وقال الحمار :

— مهلا .. مهلا .. نسمع القصة أولا ..

وتشجع الشخص وقال :

— قصة طريفة والله العظيم .. اسمعوها أولا ثم احكموا ..

فقالت العصا وهى تتلفت حولها :

— لو كان هنا على الأقل شجرة نستظل بها ..

وقالت البيريه :

— أمرنا الله .. تفضل قص القصة واختصر من فضلك وارحمنا يرحمك الله من نار الجحيم ويدخلك بمشيئته ورضوانه جنة النعيم ..

فقال الشخص :

— جمعا إن شاء الله !..

فقال العصا والبيريه :

— طبعاً لنا النعيم .. فقد استوفينا الآن بعض نصيبنا من الجحيم ..

فقال الشخص :

— لا يوجد على الأرض جحيم أفضع من جحيم الحب !..

فقال الحمار :

— يا حفيظ !.. يظهر أنك مكوى ..

فقال الشخص :

— ومشوى ..

واشتد لفح الشمس وأسالت شواظ الحر العرق من الفرسان الثلاثة وهم لا يدرون ماذا يفعلون ، وقد تورطوا ولم يبق أمامهم إلا الصبر واحتمال الاستماع إلى القصة الطويلة التي يريد أن يقصها عليهم بتفصيلها هذا المحب الوهان والمعذب التعبان .. ولا يدري غير الله كم مر بهم من وقت وهم يتقلبون على جمر ذلك الحب الذي يصفون كرها إلى قصته وليس لهم فيه ناقة ولا جمل ، إلا رائحة الشواء والكي من أجسادهم المحترقة ، ليس بالحب ، ولكن بالكرب .. وقد أقسموا في نفوسهم ألا يقفوا بعد اليوم لشخص يريد طرح سؤال ، في أيام الصيف الطوال ..

وهنا قالت العصا :

— الحمد لله أن أعصابنا لم تفلت منا فيحدث ما لا تحمد عقباه ..

فقال الحمار :

— إذا كنا لم نَحْتَمِل الكلام في الحب فكيف بالكلام في غيره ؟! يظهر أننا في حاجة

— ١٧٥ —

إلى إجازة في أشهر الصيف ..

قالت البيريه :

— فعلا .. إني لم أعد أطيق .. ليس الكلام فقط بل حتى التفكير .. من رأيي أن
نسكت .. ونستريح ونريح .. ولنفترق الآن على خير .. سلام .. وقاموا إلى
الإجازة . وأنا معهم ..

* * *

رقم الإيداع ٢٩٢١ / ٨٨
الترقيم الدولي ٢ — ٠٣٨٢ — ١١ — ٩٧٧

مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقي - البحالة

دار مصر للطباعة
سعيد جودة السخار وشركاه